الإوزة البرية

الكتاب : الإوزة البرية.

الكاتب : أوجاي موري.

الفئة : أدب - رواية .

رقـــم الإيداع : 2025/19059

الترقيم الدولي : 978- 633- 8330- 20- 0

جميع الحقوق محفوظة للناشِر©

وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يُعرِّض صاحبه للمُساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

الإوزة البرية

أوجاي موري

الفصل الأول

هذه حكاية غابرة، تلوح في ذاكرتي بمحض المصادفة. فصولها دارت في عام 1880. وما رسّخ هذا التاريخ في ذهني بوضوح، أنّني آنذاك كنت أقيم في غرفة لا يحجزني فيها عن بطل هذه القصة سوى جدار واحد، داخل مسكن يُعرف بمسكن «كاميجو»، ينتصب وجهًا لوجه أمام البوابة الحديدية لجامعة طوكيو. وقد كنت من الناجين الذين كُتِب لهم السلامة من الحريق الذي التهم «مسكن كاميجو» في عام 1881، ولذلك أستطيع أن أقطع بأن أحداث هذه الرواية وقعت في السنة السابقة لذلك الحريق.

كان «مسكن كاميجو» يضمّ في أغلبه طلاب كلية الطب بالجامعة، وكان يؤوي أحيانًا نفرًا من المرضى الذين يرتادون المستشفى التعليمي التابع للجامعة. وكما هو الحال في كل مسكن، لا بد أن يقيم فيه ساكن مميز، متأنق الحال، حصيف الرأي، متفهم لما يدور حوله، يلقي التحية على مالكة المسكن الجالسة قبالة مجمرة الحطب المربعة في بهو الدار كلما مرّ من أمامها، وأحيانًا يجلس القرفصاء أمامها في الجهة المقابلة للمجمرة ليتبادل معها أحاديث شؤون الناس. فإذا أقام في غرفته مأدبة صاخبة

تفيض بالشراب، بدا في الظاهر متحاملًا عليها، إذ يطلب منها إعداد «المزة»، غير أنّه في الحقيقة كان يفعل ذلك ليجعلها تجني بعض النفع المادي. وغالبًا ما يُستقبل من كان على هذه الشاكلة بالاحترام والتقدير، ويستثمر تلك المكانة ليفرض على المسكن إرادته باللين تارة وبالحزم تارة أخرى. غير أنّ جاري في «مسكن كاميجو» كان استثناءً نادرًا؛ إذ خالف ذلك النمط كلّه.

كان ذاك الجار طالبًا يُدعى «أوكادا»، يصغرني بعام دراسي، ولم يكن يفصله عن التخرج سوى خطوات معدودة. وإذا أردت أن أصف «أوكادا» وأكشف جوهر شخصيته، فعليّ أن أبدأ بأبرز ما فيه: جمال وجهه. غير أنّ جماله لم يكن جمالًا شاحبًا ضعيف البنية، بل كان فتًى قويّ الجسد، تتورد الدماء في وجنتيه دلالةً على عافية جسده. لم تلتقِ عيناي، على مدار عمري كله تقريبًا، وجهًا يماثل وجهه. وإن سُئلت رغم ذلك أن أذكر شبيهًا له، فإنني بعد مضي زمن طويل على تلك القصة، صادقت الأديب «بيزان كاواكامي» في صباه، وهو من انتهت حياته خاتمة مأساوية بعدما ذاق مرارة الفقر والعوز. كان «كاواكامي» يشبه «أوكادا» قليلًا في جمال محياه، غير أنّ «أوكادا»، الذي كان أحد أعضاء فريق التجديف، فاقه بأشواط في قوة البنية وتناسق الجسد.

جمال الوجه يمنح صاحبه مسحة من الامتياز، لكنه لا يكفي وحده ليكسب ودّ ساكني المسكن. فماذا عن خصاله وأفعاله؟ أظن أنّ قلة قليلة من الرجال حافظوا على حياة طلابية متوازنة كتلك التي عاشها «أوكادا». لم يكن من أولئك المتفانين في التحصيل العلمي الذين يتسابقون للفوز بأعلى الدرجات طمعًا في منحة التفوق، بل كان يجتهد في إنجاز ما يُفترض به إنجازه، متجنبًا السقوط في ذيل قائمة النتائج. وكان يعرف متى يلهو ومتى يجدّ؛ يخرج بعد العشاء ليمارس رياضته بانتظام، ثم يعود إلى حجرته قبل العاشرة دون إبطاء. أما أيام الآحاد، فيقضيها بين التجديف أو التنزه إن تعذر التجديف. وباستثناء ذهابه لمعسكر تدريبي مع فريقه قبل بطولة التجديف، أو عودته إلى بلدته في عطلة الصيف، بقيت أوقات خروجه ودخوله منتظمة لا تحيد. وكلما نسي أحد الطلبة ضبط ساعته على مدفع الظهيرة، قصد غرفة «أوكادا» ليضبطها على ساعته الدقيقة. بل إن ساعة مكتب «مسكن كاميجو» كثيرًا ما كانت تُعدَّل لتوافق ساعته. وكلما رأى المحيطون به تصرفاته، ترسخ في نفوسهم الشعور بأن هذا الرجل جدير بالثقة. ولعل مالكة المسكن، وقد رأت فيه مثالًا للطالب الذي لا يجامل ولا يفرط في الإسراف، زاد مدحها له، ولا غرابة في ذلك، خاصةً وأنه كان يؤدي الإيجار الشهري دون تأخير. وكثيرًا ما كانت تردد عبارتها المألوفة وقد علت نبرة الرضا في صوتها:

.انظروا إلى السيد «أوكادا»!

وكان بين الطلبة من يستبق القول فيقطع الطريق على كل محاولة فيوافيها ساخرًا:

.ومهما فعلت، فلن أبلغ منزلة «أوكادا».

وهكذا غدا «أوكادا» — وإن كان على نحو غير معلن — المثل الأعلى لسكان «مسكن كاميجو».

أما مسار «أوكادا» في رياضته اليومية، فقد كان معلومًا في مجمله؛ يهبط منحدر «موئنزاكا» شبه المقفر، ثم يطوف في الجهة الشمالية من بركة «شينوبازو»، حيث تصب مياه نهر «أيسومه» القاتمة كسواد أسنان بعض النساء، ثم يصعد مرتقى «أوينو». يعبر بعدها شارع «هيروكوجي»، حيث ينتصب مطعما «ماتسوجن» و«جان نابيه» الشهيران، ثم يخترق حي «ناكاتشو» الضيق المكتظ بالخلق، ومنها يمر بمعبد «يوشيما» قبل أن يعود أدراجه ملتفًّا عند زاوية معبد «كاراتاتشي» الكئيب. وأحيانًا ما ينحرف يمينًا عند «ناكاتشو» ليعود إلى المسكن عن طريق منحدر «موئنزاكا». هذا أحد مساريه المعتادين.

وأما المسار الآخر، فيمر عبر الجامعة فيخرج من بوابتها الحمراء؛ وقد يلج أحيانًا من «بوابة ناجايامون» المخصَّصة للمرضى بمستشفى الجامعة

حين تُغلق البوابة الحديدية قبل الأوان. ثم أُزيلت تلك البوابة، فحلّت محلّها البوابة السوداء المقابلة لحي «هاروكيتشو». وما إن يجتاز الحرم الجامعي، حتى يسلك شارع «هونجو»، فيمرّ أمام متجر حلوى يريك كيفية إعدادها حيًّا، ليصل إلى باحة معبد «كاندا» الكبير. ثم ينحدر فوق جسر «مجانه» — وكان يومها حديث الإنشاء — ويمشي قليلًا في حي «ياناجيهارا»، حيث صفٌّ طويل من البيوت يطلّ على النهر. بعد ذلك يعود عبر زقاق ضيق في الغرب من طريق «أوناريميتشي»، حتى ينتهي به المسير ثانية أمام معبد «كاراتاتشي». ونادرًا ما حاد «أوكادا» عن هذين المسارين.

ولو سُئل: «وماذا يفعل «أوكادا» في جولاته؟»، لكانت الإجابة: «لا شيء يُذكر» سوى أن يلقي نظرات هنا وهناك على مكتبات الكتب القديمة. واليوم لم يبقَ من تلك المكتبات في «هيروكوجي» و«ناكاتشو» إلا اثنتان أو ثلاث، فيما ظلت مكتبات «أوناريميتشي» على حالها تقريبًا، أما «ياناجيهارا» فقد خلت منها تمامًا، وتحوّلت مكتبات «هونجو» وتبدّل أصحابها. ولعل ما جعل «أوكادا» نادرًا ما يتجه يمينًا خارجًا من البوابة الحمراء نحو «موريكاواتشو»، هو ضيق دروبها الشديد، إلى جانب سبب آخر: لم يكن في تلك الناحية إلا مكتبة قديمة واحدة.

ولم يكن توقف «أوكادا» أمام المكتبات إلا بدافع يمكن أن نسميه اليوم حبًّا للأدب؛ فقد كان ذلك زمنًا لم تظهر فيه الروايات والمسرحيات الحديثة بعد، ولم تُنشر بعد قصائد «تيكن» في الواكا ولا «شيكي» في الهايكو. لذا كان الجميع يتصفح مجلتي «كاجتسوشينشي» المطبوعة على ورق صيني، و«كيرين إيشي» المطبوعة على ورق أبيض، حتى صار الناس يرون في قصص «كاي نان» و«موكوه» تجسيدًا للذائقة الأدبية الرفيعة. وأتذكر يقينًا أنني كنت أحرص على قراءة «كاجتسوشينشي». وفي هاتين المجلتين طُرحت لأول مرة ترجمات الأدب الغربي، وأذكر أن «تاكاهيرا كاندا» ترجم حكاية طالب البعثة الذي لقي حتفه في طريق العودة إلى الوطن، ونشرها بلغة مبسطة أقرب إلى كلام العامة، ولعلها كانت أول ما قرأتُه من الأدب الغربي. وهكذا لم تَزِد هواية «أوكادا» الأدبية في تلك الأيام على الاستمتاع بكتابات علماء اللغة وأشعارهم وما يدونونه عن أطوار المجتمع الجديد.

ولأنني لم أكن ممن يجنحون إلى الألفة، قلّما كنت أتبادل الحديث مع طلاب الجامعة ما لم يكن ثمّة داعٍ، وحتى مع أولئك الذين يقطنون معي في المسكن نفسه نادرًا ما رفعت قبعتي تحيةً لهم. لكن مكتبات الكتب القديمة كانت خيط الوصل بيني وبين «أوكادا»، إذ لم يكن مساري أثناء رياضتي محددًا بدقة كمساره؛ فقد كنت أجوب مناطق «هونجو» و«شيتايا» و«كاندا» طولًا وعرضًا بخطاي الواثقة، وعندما ألمح مكتبة

قديمة أقف متأملًا. وهكذا التقيتُ «أوكادا» غير مرة أمام تلك المكتبات. وبدأ حديثنا الأول ببساطة ودّية حين قال أحدنا للآخر:

.ألَا ترى أننا كثيرًا ما نلتقي أمام مكتبات الكتب القديمة؟

في تلك الأيام البعيدة، كانت هناك مكتبة عتيقة تفترش حافة خشبية مُقوَّسة كأنها خطّافٌ يشرف على منحدرٍ ضيّقٍ عند ركنٍ يطلّ على معبد «كاندا». وذات مرّةٍ عثرت بين رفوفها على رواية صينيّة تُدعى «كينبيباي»، فسألت صاحب المكتبة عن ثمنها، فأجابني قائلًا:

.سبعة ينّات.

وحين رجوتُه أن يُخفّض السعر إلى خمسة ينّات، أجاب دون تردّد:

.قبل قليلٍ فقط، عرض السيّد «أوكادا» ستّة ينّات، ولم أقبل.

واتّفق أنني كنت أملك وقتها ما يكفي من النقود، فدفعتُ ما طلبه واقتنيت الكتاب مسرورًا. وبعد يومين أو ثلاثة التقيتُ «أوكادا»، فما كان منه إلا أن ابتدرني بشيء من العتاب الممزوج بالدعابة:

. يا لك من رجلٍ فظيع! تبتاع الكتاب الذي بحثت عنه طويلًا حتى اهتديت إليه أخيرًا!

. نعم، نعم، فقد أخبرني البائع أنه لم يوافق على السعر الذي عرضته. ولكن إن شئت، فأنا على استعدادٍ لأن أنزل لك عنه.

. وما حاجتي لذلك؟ يكفينا أننا جيران، فأعِرْني إياه متى تنتهي من قراءته.

فأجبته بسرورٍ بالغ، وهكذا نشأت بيننا عادة التزاور وتبادل الأحاديث بعد أن قضينا زمنًا طويلًا نسكن جنبًا إلى جنب، لا يفصلنا سوى جدارٍ صامت، دون أن تربطنا معرفة أو حديث.

الفصل الثاني

في تلك الأيام، كان قصر «إيواساكي» قائمًا – كما هو اليوم – في الجهة الجنوبية من منحدر «موئنزاكا»، غير أنّه لم يكن يكتنفه ذلك السور العالي المشيّد من الطمي، بل كان يحيطه آنذاك سورٌ واطئٌ من الحجارة المتسخة، وقد نبتت بين فراغاته سرخسياتٌ وذيولُ الخيل، يكسوها عفنٌ أخضر يوحي بالإهمال. ولست أدري – ولا علم لي حتى الآن، إذ لم أُتَح لي يومًا فرصة الدخول إلى ذلك القصر – أكانت الأرض وراء السور مستويةً أم متربعةً على ربوة صغيرة. غير أنّ النباتات وقتها كانت تمتدّ خلف السور كيفما شاءت، وجذورها الطالعة للعيان تكشف عن طبيعة أرض لم تعبأ بها يد العناية، ونادرًا ما اقتُلِعت الأعشاب التي نبتت حول تلك الجذور.

أما في الجهة الشمالية من المنحدر، فقد تراصّت بيوت صغيرة متواضعة، أجملها – من حيث المنظر – بيوت بعض العائلات التي لا تعمل بالتجارة، تحيط بها أسوار خشبية متواضعة، بينما غلب على البقية كونها بيوتًا للعمّال والحرفيين، وفيها ورشٌ صغيرة. ولم يكن هناك من المحالّ سوى دكانٍ يبيع التبغ، وآخر يبيع أدوات المطبخ. وكان من بين ما يلفت

نظر العابرين منزلٌ تسكنه سيدة تعلّم الخياطة، تجتمع حولها في النهار فتياتٌ كثيرات يعملن خلف نافذة شبكية. فإذا كان الطقس معتدلًا، وتُركت النافذة مفتوحة، ومررنا – نحن الطلاب – أمامها، رفعت أولئك الفتيات، دون أن ينقطعن عن أحاديثهنّ، وجوههنّ جميعًا نحو الطالب المار، ثم لا يلبثن أن يعدن إلى حديثهنّ أو يطلقن ضحكاتٍ خافتة.

وبجانب ذلك المنزل كان يقبع منزلٌ آخر، بدا لي بابه نظيفًا بديعًا، وكانت أرضية مدخله مرصوفةً بصخور الجرانيت. وفي المساء، كلما مررتُ به، كنت أرى نافورة ماءٍ في حديقته، وكان الباب يغلق في برد الشتاء، لكن ستائر الخيزران كانت تظلّ متدلّيةً حتى في حرّ الصيف، فيضفي سكون ذلك المنزل على ضجيج بيت معلمة الخياطة المجاور مسحةً من الوقار الهادئ.

وفي شهر سبتمبر من العام الذي وقعت فيه أحداث هذه القصة، عاد «أوكادا» من بلدته، وما إن تناول العشاء حتى خرج في جولة تريضه المعتادة. وبينما كان يهبط منحدر «موئنزاكا» الهوينى، متجاوزًا المكان المؤقت لغرفة تشريح الجثث في القصر القديم لحاكم إقطاعية «كاشو»، وقع بصره صدفةً على امرأة خارجةٍ من الحمّام الشعبي، تدخل ذاك المنزل الهادئ القابع بجوار منزل معلمة الخياطة. كان الطقس قد ألّف معالم الخريف، فما عاد الناس يلوذون بالخروج فرارًا من القيظ. وعندما اجتاز «أوكادا» المنحدر الخالي من المارة، كانت المرأة قد بلغت بوابة المنزل

وأوشكت أن تفتحها. لكنّها ما إن سمعت وقع قبقابه، حتى أوقفت يدها الممتدة إلى الباب، والتفتت إليه، فتلاقت عيناها بعينيه في لحظة خاطفة.

لم يترك ذلك اللقاء في نفس «أوكادا» أثرًا عميقًا. كانت المرأة ترتدي «كيمونو» صيفيًّا رماديّ اللون، شدّته بحزام مزدوج من الساتان الأسود والحرير البني، وتحمل في يدها اليسرى الرقيقة سلةً من خيزرانٍ رفيع، تحوي منشفةً وصابونًا وليفةً وإسفنجة، فيما يدها اليمنى ما تزال موضوعةً على الباب. غير أنّ نظره توقف عند طريقة ربط شعرها، حيث التفت الخصلة الرفيعة على الجانبين في هيئةٍ تشبه جناحي زيز. وكان وجهها طويلًا دقيقًا، يعلوه أنفٌ حاد، وصبغ ذلك الوجه المسطّح – الممتد من الجبين حتى الفك – بشيءٍ من مسحة الوحدة. ولم يكن وقوف «أوكادا» أمامها إلا لحظةً قصيرة، حتى طوى تلك الصورة من ذهنه تمامًا عند بلوغه أسفل المنحدر.

غير أنّه بعد يومين تقريبًا، خرج «أوكادا» كعادته في جولة تريض مسائية، متوجهًا إلى منحدر «موئنزاكا»، فما إن اقترب من ذلك المنزل ذي البوابة الشبكية حتى برزت ذكرى تلك المرأة إلى سطح ذاكرته. رفع عينيه نحو النافذة العلوية، وقد ثُبّتت فيها عيدان خيزران رأسيةٌ، تعترضها ألواحٌ أفقيةٌ خشبيةٌ مبريةٌ على نحوٍ دقيق، يكسوها نبات اللبلاب المتسلق. وكانت ستائر النافذة مفتوحةً بقدر قدم، بدت من خلالها مزهريةٌ تحتضن

زنبقًا يابانيًّا، وقد أُلقي في المزهرية قشر بيض. ولأن «أوكادا» أطال النظر إليها لحظاتٍ طويلة، خفّت خطاه دون وعي، حتى وجد نفسه قد بلغ تمامًا واجهة ذلك البيت الصامت.

ثم لما بلغ عتبة ذلك البيت، برز فجأة وجه أبيض من خلف مزهرية الزنبق التي اكتست بلون رمادي قاتم، يرمقه بابتسامة صامتة.

ومنذ ذلك الحين، صار «أوكادا» كلما خرج ليتريض ومرّ أمام ذلك البيت، نادرًا ما يخلو مروره من رؤية وجه تلك المرأة. بل أحيانًا كانت تقتحم خياله دون استئذان، حتى بدا وكأنها شيئًا فشيئًا تستولي على عالم خيالاته وتستأثر به. وكان يلحّ في نفسه تساؤل حائر: تُرى هل تلك المرأة تنتظر مروره حقًا؟ أم أنها لا تفعل سوى التطلع إلى الخارج بلا قصد، فيلتقي وجهها بوجهه مصادفة؟

عندها شرع يستعيد في ذاكرته الأيام التي سبقت رؤيته لها عائدةً من الحمّام: هل سبق له أن لمح وجه امرأة تطلّ من نافذة ذلك البيت؟ غير أنّ ذاكرته لم تسعفه إلا بصورة ذلك المنزل الكائن بجوار بيت معلمة الحياكة؛ بيت كان رغم ضجيج البيوت المطلة على النهر، أكثرها هدوءًا ونظافةً وجمالًا، وكأن الصمت يلفّه برداء من السكينة.

صحيح أنّه كان قد تساءل في نفسه يومًا: «ترى من يقطن هذا المنزل الوادع؟» لكن تساؤله ذاك بقي معلقًا بلا جواب؛ إذ كانت نوافذه دائمًا مغلقة، أو تحجبها ستائر الخيزران المنسدلة، فلا يظهر منها سوى صمتٍ ثقيلٍ يبعث في النفس شيئًا من الوحشة.

وبينما كان يتأمل ذلك كله، ترسخ في ذهن «أوكادا» خاطرٌ يهمس له بأن تلك المرأة صارت في الآونة الأخيرة تتعمّد فتح النافذة وتطلّ مترقبةً مروره.

ومع تكرار التلاقي بين نظراتهما، نبت في قلبه إحساسٌ خافتٌ بالألفة تجاه تلك «المرأة خلف النافذة».

وبعد مضيّ أسبوعين، وبينما كان «أوكادا» يمرّ مساءً أمام تلك النافذة، وجد نفسه، دون وعيٍ منه، يرفع قبعته وينحني تحيةً لها. فما كان منها إلا أن احمرّ وجهها الأبيض الناحل في لمح البصر، وتحولت ابتسامتها الصامتة التي كانت تشي بالوحدة إلى ابتسامة مشرقة متألقة.

ومنذ ذلك اليوم، صار «أوكادا» ينحني تحيةً لتلك «المرأة خلف النافذة» في كل مرة يمرّ فيها من هناك.

الفصل الثالث

كان «أوكادا» مولعًا أشد الولع بحكايات الصين التاريخية في مجلدات «جوشوشينشي»، وخصوصًا سيرة البطل العسكري «دايتيتسوي» التي كان يحفظها عن ظهر قلب كمن يردد أنشودة عشق قديم. ومنذ زمن بعيد تسللت إلى نفسه رغبة جامحة في ممارسة فنون القتال، غير أن الأقدار لم تُتح له الفرصة قط، فظل شغفه حبيسًا لم يجد سبيلًا إلى الواقع. لكن في السنوات الأخيرة وجد في رياضة التجديف متنفسًا، فأقبل عليها بحماسة صادقة حتى غدا واحدًا من لاعبيها، بعد أن شجّعه أصدقاؤه وأوقدوا في صدره تلك الرغبة الكامنة. وربما كان ذلك امتدادًا طبيعيًا لذلك الولع المستتر في أعماقه.

ولم يقتصر شغفه على بطولات الرجال، بل كان في قصص «جوشوشينشي» مأخوذًا أيضًا بسيرة «شاوتشين»، تلك المرأة التي قدّمت الجمال على الحياة نفسها، فكانت تهدّئ روحها وتضع مساحيق الزينة على وجهها بيد ثابتة، استعدادًا لملاقاة الموت الواقف خلف الباب. كان «أوكادا» يرى أن على المرأة أن تُكرّس حياتها لتكون جميلة ومحبوبة، وأن

تصون الحب والجمال مهما كانت قسوة الظروف المحيطة بها. ولعل هذا الشعور نما في وجدانه دون وعي منه، تغذّيه مطالعاته اليومية لقصائد العشق والشجن التي دبّجها شعراء عصر «مينج» و«شينج» في الصين، أولئك الذين صبغت كتاباتهم بالعاطفة الجيّاشة ونبرة القدَر المحتوم.

وعلى الرغم من مرور زمن طويل على اعتياد «أوكادا» أن ينحني بتحية صامتة نحو «امرأة النافذة»، فإنه لم يحدّث نفسه يومًا بالبحث عن أصلها أو معرفة خبايا حياتها. كان يفهم، من هيئة البيت وهيبتها الرصينة، أنها لا بد محظية لرجل ثري تقيم في مسكنٍ مستقلّ، لكن ذلك لم يشغله قط. لم يعرف حتى اسمها، ولم يسعَ لأن يعرفه. راودته فكرة ذات مرة أن يلقي نظرة على اللوحة المثبّتة عند مدخل المنزل ليقرأ اسمها، لكنه كان يستحي أن يفعل ذلك وهي تطلّ عليه من نافذتها، وإذا لم تكن هناك، كان يخجل أن يلمحه أحد الجيران أو المارة. وهكذا ظلّت اللوحة الخشبية الصغيرة، التي تخفيها ظلال إفريز السقف، بعيدة عن عينيه، كما ظل اسمها مجهولًا في قلبه رغم القرب الصامت الذي جمعهما كل يوم.

الفصل الرابع

في الواقع، لقد علمتُ بتفاصيل حكاية «امرأة النافذة» بعد أن وضعتُ نهايةً للأحداث التي سأرويها الآن، والتي لا بدّ أن يكون «أوكادا» بطلًا لها. لذا، وجدتُ من المفيد أن أدوّن هنا لمحةً سريعةً عن خلاصة تلك الحكاية.

بدأت وقائع القصة في تلك الأيام التي كانت فيها كلية الطب التابعة لجامعة «طوكيو» ما تزال قائمةً في حيّ «شيتايا». وكان مبنى الحراسة القديم التابع للحاكم الإقطاعي «طودو» قد تحوّل إلى سكنٍ للطلاب. وعلى جدران ذلك المبنى، التي كُسيت بقرميد رماديٍّ ثُبّت بالجصّ على مربعاتٍ تشبه رقعة لعبة «الجو»، انتصبت هنا وهناك نوافذ مرتفعة، وُضعت على طولها أعواد خشبية ضخمة في سُمك ذراع الإنسان. وبالرغم مما يُضفيه هذا البناء من صرامةٍ وغلظةٍ على المظهر، كان الطلاب يعيشون فيه أشبه بالوحوش البرية. ولو حاولت اليوم أن تبحث عن مثل تلك النوافذ، فلن تجد إلا بقاياها القليلة في بعض أبراج قلعة «إيدو» العتيقة التي تضمّ القصر الإمبراطوري. وربما كانت الأقفاص التي يُربّى فيها الأسود والنمور في

حديقة حيوان «أوينو» مصنوعةً من أسياخٍ أضعف بكثير مما كان يُستعمل هناك.

وكان يعمل في سكن الطلاب هذا عددٌ من العمال، يتولّون الخدمة والحراسة، ويستطيع الطلاب أن يستخدموهم لقضاء حوائجهم وشراء ما يحتاجون إليه من الخارج. أما أولئك الطلاب الفقراء، الذين لا يملكون سوى زيّ «هاكاما» رخيص مع حزام قطني أبيض، فلم يكن لهم من الطلبات إلا أقلّ القليل؛ من ذلك حلوى «اليوكان» و«الكونبيتو». ولعل في ذكر ذلك فائدةً تبقى مرجعًا للتاريخ: إذ كان «اليوكان» آنذاك يعني البطاطا المشوية، و«الكونبيتو» كان الفول المحمّص. وكان أجر العامل عن كل مرة يذهب فيها للشراء سنَّين اثنين فحسب.

وكان من بين هؤلاء العمال رجل يُدعى «سويزو». ومع أنّ معظم رفاقه من العمال كانوا يطيلون شواربهم ولحاهم حتى بدا وجوههم كأكمام الكستناء المفتوحة، وأفواههم متدليةً بينها، فقد كان «سويزو» يحلق شاربه ولحيته بعناية بالغة، ويُطبِق شفتيه بإحكام حتى تكاد ترى ما تبقى من بشرته يميل إلى الاخضرار بعد الحلاقة. وكان زيّ غيره من العمال متسخًا باليًا، أما هو فقد كان يلبس «هاكاما» نظيفًا لماعًا، وكثيرًا ما يُرى مرتديًا ملابس من قماش فاخر تعلوها صدرة أنيقة.

وقد سرت في السكن شائعةٌ لا أعلم من كان أول من أطلقها، خلاصتها أنّ الطالب الذي تنفد نقوده يمكنه أن يقترض من «سويزو». في البداية كان القرض بحدود خمسين سنًّا أو ين واحد، ثم ارتفع إلى خمسة ينّات، ثم عشرة، وكان يجبر المقترض على كتابة إيصال أمانة، ثم يطالبه بتجديده عند حلول الأجل. وهكذا تحوّل «سويزو» في النهاية إلى مرابٍ محترف. لكن من أين له برأس المال الذي سمح له بأن يبدأ ذلك كلّه؟ يستحيل أن يكون قد جمعه من ادخار الأجرة الضئيلة التي كان يتقاضاها نظير قضاء الحوائج. بيد أنّه في نهاية المطاف لا يُستبعد شيء عن إنسانٍ إذا صمّم بإرادته، وحشدَ ما يملك من عزيمةٍ وفطنةٍ لتحقيق ما أراد.

على كل حال، في الوقت الذي انتقلت فيه كلية الطب من حي «شيتايا» إلى منطقة «هونجو»، لم يعد «سويزو» يعمل خادمًا هناك، غير أنّ انقطاعه عن الجامعة لم يقطع سيل الطلبة من مختلف المشارب الذين ظلّوا يؤمون البيت الذي انتقل إليه في منطقة «حافة البركة».

كان «سويزو» قد تجاوز الثلاثين حين عمل خادمًا بالجامعة، ورغم ضيق ذات يده، كان رجلًا متزوجًا يعول أسرة. لكن بعدما صار مرابيًا ناجحًا، وانتقل للعيش في «حافة البركة»، لم يعد يرضيه مقام زوجته القبيحة سليطة اللسان، فأخذ قلبه ينزاح بعيدًا عنها.

وفي تلك الأثناء، عاد إلى ذاكرته طيف امرأة كان يلمحها أحيانًا ذاهبًا إلى عمله أو عائدًا منه، إذ كان يعبر أرضًا خلاء ضيقة خلف منطقة «نيريبيتشو». هناك كان يقوم بيت كئيب أبوابه نصف موصدة على الدوام، في طريقٍ تتكسر فيه أغطية قنوات الصرف حتى بدت كأفواه جريحة. وكان لا بدّ له، حين يمر ليلًا، أن يلصق جسده بالحائط بسبب ضيق الطريق، وبسبب عربة بيع حلوى تقف تحت إفريز السقف الخشبي.

لكن ما لفت انتباه «سويزو» حقًّا كان صوتًا عذبًا لعزفٍ على آلة «الشاميسن». وسرعان ما عرف أنّ صاحبة ذلك العزف فتاة في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمرها، لطيفة القسمات، نظيفة الملبس، ترتدي «كيمونو» صغيرًا أنيقًا لا يليق بحال بيتها الفقير. وكانت كلما مرت قدم غريبة على الطريق تسرع بالدخول إلى ظلمة الدار.

وسويزو، الذي عُرف بين معارفه بالحذر والتروي، عرف بلا عناء أنّ اسم الفتاة «أوتاما»، وأنها يتيمة الأم وتعيش مع والدها العجوز الذي يخرج ليبيع الحلوى في حي «أكيهانوهارا».

ثم انقلبت الأيام فتبدّل حال ذلك البيت القابع في ركن المدينة الخلفي، وبدت عليه آثار ما كان الناس يومها يسمونه «الحضارة». اختفت العربة التي كانت تقف تحت الإفريز، وأُعيد ترتيب أغطية قنوات الصرف

المتهالكة، وتبدل شكل الواجهة تبدلًا تامًّا، حتى أُقيم أمامه باب خشبي جديد.

وذات مرة لمح «سويزو» حذاءً مخلوعًا على عتبة الدار، ولم يمض طويل وقت حتى رأى أنّ لوحة الاسم على مدخل البيت قد تبدلت، وكتب عليها «الشرطي فلان الفلاني». ومن خلال جولاته بين حيي «ماتسوناجاتشو» و«ناكاوكاتشيماتشي» علم، دون قصد منه للبحث، أنّ الشرطي المذكور قد تزوج «أوتاما» وسكن في بيت أبيها.

وكان ذلك الزواج كالكابوس الذي حطّ على صدر العجوز بائع الحلوى، الذي أحب ابنته كروحه، بل كأغلى من سواد عينيه. فقد بدا له الشرطي بوجهه الغليظ كوحش جاء ليختطفها من بين يديه. استشار العجوز كل من يعرفهم، لكن لم يجرؤ أحد منهم على أن ينهاه صراحة عن الزواج.

قال له أحدهم متحسرًا:

ـ ألم أقل لك من قبل؟ دعني أبحث لها عن نصيب يليق بها، فكنت تقول: «هي ابنتي الوحيدة، ولا أطيق فراقها»... حتى جاءك رجلٌ لا تستطيع رده.

وقال آخر بنبرة تخالطها الرهبة:

. إن أبيت هذا الزواج، فاذهب بعيدًا وارتحل إلى مكان ناءٍ، لكنه شرطي، وسيعثر عليكم حيثما كنتم، ولا مهرب لكم منه.

أما أفضل ما سمعه فكان من سيدة عُرفت بفهمها الدقيق لأحوال الدنيا، إذ قالت له:

. ألم أنصحك أن ترسلها لتتعلم على يد إحدى معلمات «الجيشا»؟ حتى إن إحداهن أثنت على عزفها، وقالت إنها ماهرة؟ الشرطي الأعزب يدور البيوت، وإذا وجد فتاة جميلة لم يحمها أحد، اختطفها دون تردد. ويبدو أنّ الأوان قد فات، وأنّكم صرتم في قبضته، فسلّم أمرك للقدر المرير.

ومضت ثلاثة أشهر تقريبًا بعد أن سمع «سويزو» تلك الأحاديث، إلى أن جاء صباحٌ رأى فيه بيت العجوز موصد الأبواب، وقد علقت عليه لافتة كُتب فيها: «بيت للإيجار، الوسيط في آخر حي ماتسوناجاتشو ناحية الغرب».

وتناقل الجيران الأنباء بين همس وحكاية، حتى بلغ سمع «سويزو» أنّ الشرطي كان له زوجة وأبناء في بلدته الأصلية، وقد حضرت زوجته فجأة فافتضحت الحقيقة، فثارت «أوتاما» من الذهول والحزن، وهمّت أن تلقي بنفسها في البئر، لولا أن جارتها تصادف وجودها، فأمسكت بها ومنعتها في اللحظة الأخيرة.

حين تقدّم الشرطي للزواج من ابنة بائع الحلوى العجوز، لجأ العجوز إلى مشورة كثيرين من حوله، غير أنّ أحدًا ممن استشارهم لم يكن ذا دراية قانونية تنير له سبيل توثيق عقد الزواج وإتمام أوراقه على الوجه الصحيح؛ لذا بقي العجوز غافلًا عمّا جرى من إجراءات. وحين قال الشرطي، وهو يمرّر أصابعه في لحيته:

ـ سأتولى بنفسي كل ما يلزم من أوراق وإجراءات.

لم يتطرّق الشك إلى قلب العجوز قط.

وفي تلك الأثناء، في متجر بقالة يُدعى «كيتازومي» بحي «ماتسوناجاتشو»، كانت فتاة بيضاء الوجه، بيضاوية الملامح، قصيرة الفكّ، يُطلق عليها الطلاب ساخرين لقب «عديمة الفك»، تقول لـ«سويزو»:

ـ حقًّا إن «أوتاما» فتاة مسكينة للغاية؛ فقد خدعتها طيبتها البريئة، فصدّقت أنّه جاء حقًّا ليتزوّجها، لكن يُقال إن الشرطي لم يُرِد سوى مأوى يأوي إليه.

وهنا تدخّل والدها العجوز «كيتازومي»، من خلفها، ومسح رأسه الأصلع بكفّه وقال:

. وأبوها العجوز مسكين كذلك؛ فما وجد بدًّا من مغادرة الحي خجلًا من الناس، فانتقل للسكن في الجهة الغربية من «توريجوي». ومع ذلك، فلولا وجود أطفال في الحي الجديد لما استطاع أن يستمرّ في صنع الحلوى وبيعها كما كان يفعل. ولهذا كان يعود كل يوم ليبيع حلواه في حي «أكيهانوهارا» كما اعتاد. ومع أنّه باع عربته يومًا ما، إلا أنّ صاحب محل العربات المستعملة في «ساكوماتشو»، الذي استودعها عنده، رقّ قلبه حين علم بما جرى، فردّها إليه. وقد كلّفه ذلك، إلى جانب نفقات الانتقال، أموالًا كثيرة أرهقته. أمّا الشرطي، فقد أهمل زوجته وأطفاله في بلدته، وكان بوجهٍ لا يعرف الحياء يشرب الخمر مع العجوز الذي لا يطيق الخمر أصلًا؛ ولعلّه كان يتوهّم أنّه يعيش حلمًا من أحلام التقاعد المريح.

ومرّ بعد ذلك زمن، حتى نسي «سويزو» أمر «أوتاما» ابنة بائع الحلوى نسيانًا تامًّا، قبل أن تعود صورتها إلى ذهنه بغتةً حين تحسّن حاله، وذاق شيئًا من طعم الثراء والحرية.

فلما صار لـ«سويزو» مكانة في المجتمع، بعث امرأة إلى ناحية غربي «توريجوي»، فاستطاعت أن تهتدي إلى بيت بائع الحلوى العجوز، القابع خلف «ريوسيزا» قرب محل العربات، وهناك وجدت «أوتاما» لا تزال تقيم معه. وحين نقلت لهما خبرًا بأنّ أحد كبار التجار يبحث عن محظية، بادرت «أوتاما» أوّل الأمر بالرفض القاطع، لكنّها في النهاية، وإذ غلب عليها عقلها،

قبلت بذلك مضحيةً بنفسها لأجل والدها، وتمّ الاتفاق على أن يكون لقاؤها الأول بالسيد في مطعم «ماتسوجن».

الفصل الخامس

حين اكتشف «سويزو» . الذي لم يكن يشغله في دنياه سوى جمع النقود . مكان «أوتاما»، وقبل أن يعرف هل سترضى أم ستأبى، شرع بنفسه يبحث في الأنحاء عن بيتٍ للإيجار. وبينما كان يتنقّل بين عددٍ من البيوت، وقع نظره على بيتين استرعيا اهتمامه.

أما الأول فكان في «حافة البركة» ذاتها التي يقيم فيها، يكاد ينتصف المسافة بين قصر «جينئتيشرو فوكوتشي» القريب من بيته ومطعم «رنجيوكو» الشهير وقتها بتقديم «السوبا». كان ذلك البيت يقترب قليلًا من المطعم عند الزاوية الجنوبية الغربية للبركة، وقد بُني بحيث يبتعد قليلًا عن عيون المارة. يحيط به سورٌ من الأشجار ذات الفروع المتشابكة، من بينها شجرة خيزران وأخرى من الأرز الياباني، ومعهما شجرتا سرو أو ثلاث. وتطلّ نافذةٌ محاطةٌ بأعواد الخيزران من بين تلك الأشجار. ولأن لافتة «بيت للإيجار» كانت معلّقةً عليه، ولج «سويزو» ليراه عن كثب، فوجد أنه ما زال مأهولًا. استقبلته امرأة عجوز في نحو الخمسين من عمرها وأرشدته لتفقد البيت كله. ومما باحت له به من تلقاء نفسها أنّ زوجها كان

كبيرَ مساعدي حاكم إقطاعيةٍ في إقليم «تشوجوكو» بوسط اليابان، وبعد إلغاء النظام الإقطاعي التحق بوزارة الخزانة ليحصّل معاشًا. وقد جاوز بضعًا وستين من عمره، غير أنه شديد الولع بالنظافة، فيطوف بأنحاء طوكيو باحثًا عن البيوت النظيفة الجديدة فيستأجرها، لكن لا يلبث أن يتركها بعد فترة وجيزة ليحلّ بمكانٍ آخر. وبما أنّ أبناءهما قد تزوجوا واستقلّوا منذ زمن بعيد، فلا أحد في البيت يُحدث فيه فوضى، إلا أنّ السكنى فيه تُقادم شيئًا من حُسن طلائه وتُبلي شيئًا من حصير «التاتامي» وأوراق الأبواب، غير أنّ الزوج لا يبالي بالتجديد بل يُسارع إلى ترك المكان. وكانت الزوجة العجوز تسخط من ذلك فتشكو مرّ الشكوى حتى للغرباء. قالت له:

. هذا البيت، مثلًا، ما زال جديدًا نظيفًا كما ترى، ومع ذلك قال إنه يعتزم الرحيل عنه قريبًا.

ثم جعلته يتفقد البيت غرفةً غرفةً، وركنًا ركنًا. فأعجب «سويزو» بنظافته وجماله، فسأل عن قيمة الإيجار ومبلغ التأمين وأجرة السمسار، ودون كل ذلك في مفكرته قبل أن يخرج.

أما البيت الثاني فكان بيتًا صغيرًا في منتصف منحدر «موئنزاكا». لم تُعلَّق عليه لافتة تشير إلى تأجيره، لكن «سويزو» سمع أنّه معروض للبيع، فتوجه ليراه. وكان مالكه رجلًا يملك محلًّا لرهن الأشياء النفيسة في حي «يوشيما»،

وقد اقتطع المحل من سفح الجبل. اعتزل ذلك الرجل العمل وترك المحل لابنه، ثم أقام في هذا البيت حتى توفي مؤخرًا، فأخذ الابن أمه العجوز لتعيش معه. وكان البيت الملاصق مدرسةً لتعليم فن الحياكة، فربما يتسلل منها شيء من الضوضاء، إلا أنّ صاحب البيت الراحل . إذ كان بيتًا لتقاعده وراحته . قد انتقى لأجله أمتن الأخشاب وأجودها، فغدا العيش فيه باعثًا على الراحة. وقد شُيّد ذلك البيت بعناية وإتقان في أدق تفاصيله، واتسم بجمال بسيط وأنيق يمتدّ من السور الخشبي عند المدخل إلى أرض الحديقة المرصوفة بأحجار الجرانيت، وصولًا إلى البناء الداخلي نفسه.

قضى «سويزو» ليلته يتقلب في فراشه، حائرًا أي البيتين يختار. وإلى جواره زوجته التي استسلمت للنوم مع طفليهما بعد جهدٍ في تهدئتهما، ففغرت فاها الواسع، وأطلقت شخيرًا خشنًا لا يليق بأنثى. ولم يكن في الأمر ما يثير دهشتها، إذ اعتادت سهر زوجها الطويل يفكر في حسابات القروض وأرباحها، فلا تكترث لصحوه ولا لأرقه. غير أن «سويزو» هذه الليلة كان يختزن في صدره فرحًا صامتًا، وبينما يرمق وجه زوجته شاردًا، راح يحدث نفسه: «مع أنكِ امرأة، فما أقبح وجهكِ يا هذه! لم أرَ «أوتاما» منذ زمن بعيد، لكنها كانت آنذاك على أعتاب الفتوة؛ هادئة الروح، نضرة الوجه، وفي ملامحها فتنة تسلب القلب، أكاد أشتهي أن أضمها إلى صدري وأطبع قبلةً على وجنتيها. لا بد أنها اليوم صارت أبهى جمالًا وأغنى أنوثةً. آهٍ، كم أود

رؤية محياها. أما أنتِ يا امرأتي الثقيلة، فتنعمين بنومٍ بليد، غير عابئةٍ بي، ظانةً أنني لا يشغلني إلا المال! كم تُخطئين. تبًا! هذا ما كان ينقصني، البعوض جاء! إني أكره منطقة «شيتايا» لهذا السبب تحديدًا. لا بد من إسدال الناموسية، ولتذهب الأم إلى الجحيم، فما يهمني حقًا هو أن أحمي الطفلين من لسعاته».

ثم ما لبث أن عاد يفكر في أمر البيت الجديد. ولما تأمل الجوانب كلها، وكانت الساعة قد تجاوزت الواحدة، استقر تفكيره على النحو التالي: «ذلك البيت المطلّ على «حافة البركة»، صحيح أن منظره جميل، لكني سئمت من هذا الجمال في بيتي الحالي. والإيجار رخيص، غير أنني سأتحمل نفقاتٍ أخرى لو استأجرته. فضلًا عن أنه مكشوف، يسهل أن تقع عليَّ عيون المارة، ولو حدث ونسيَت زوجتي النافذة مفتوحة، ثم مرّت مع الطفلين في طريقها إلى «ناكاتشو» ورأتني، فستقع كارثة. أما بيت «موئنزاكا»، فعلى ما فيه من كآبة، إلا أنه في موضع لا يعبره إلا بعض الطلبة حين يتريضون، ولا يلتفت إليه أحد. صحيح أن شراءه دفعة واحدة عبء مالي، لكنه رخيص إذا ما قورن بما استُخدم في بنائه من أخشاب جيدة. وإن أمّنته، فسيمكنني عند البيع استعادة ما دفعته، وذلك يمنحني شيئًا من الطمأنينة. أجل، سأختار «موئنزاكا». كل مساء سأذهب إلى الحمام العام، ثم أهيئ نفسي وأتذرع بأي عذر ملائم لأخدع به زوجتي وأخرج. وعندما أفتح ذلك الباب

الخشبي وأتقدم بخطى ثابتة في الممر، كيف سيكون الحال؟ آه يا «أوتاما»، لا بد أنك ستجلسين هناك، وفي حجركِ قط أو شيء من هذا القبيل، تنتظرينني في وحدة موحشة. وستكونين قد تزينتِ بالمساحيق، أما الكيمونو فسأجلب لكِ منه ما تشتهين. لا، انتظر! لا ينبغي الإسراف في المال. محلات الرهن تعرض كيمونو فاخرة بأسعار معقولة. يجب أن لا أبدّد ثروتي على امرأة واحدة، مثلما يفعل بعض رجال المجتمع. فانظر إلى جاري «فوكوتشي»، يملك دارًا واسعة، ويصطحب فتيات «الجيشا» متباهيًا بهن في «حافة البركة»، فيثير حسد الطلبة، بينما هو غارق في أزمة مالية يخفيها عن الجميع. لو علم بها زملاؤه العلماء لدهشوا. ما أتعس من يظن أن براعته في الكتابة ستكفل له النجاح في التجارة!».

ثم تذكر فجأة: «آه، نعم! كانت «أوتاما» تعزف على آلة «الشاميسن». ما أجمل أن تعزف لي بأصابعها الناعمة فتبوح بحبها لي! لكن ربما لا تجرؤ؛ فهي لم تعرف من الدنيا غير ما عاشته مع الشرطي ذاك. ربما تخشى السخرية فتقول: «ستضحك على عزفي»، وتمتنع خجلًا مهما توسلتُ إليها. ويغمرها حياءٌ يجعل وجنتيها تتوردان. تُرى ماذا ستفعل في ليلتي الأولى معها؟».

وظل ذهنه يجوب تلك الخيالات بلا انقطاع، حتى تداخلت الصور في رأسه؛ فتراءى له جسدها الناعم، وتناهت إلى سمعه همساتها. وأخيرًا غلبه

النعاس في لذّةٍ مكتومة، بينما زوجته إلى جواره ما زالت تغطُّ في شخيرها الغليظ.

الفصل السادس

كان اللقاء الأول في مطعم «ماتسوجن» بمثابة عيدٍ لـ«سويزو». فعلى الرغم مما يُقال عن البخلاء بأنهم يشعلون أصابعهم بدلًا من الشموع، فإنّ للبخل وجوهًا شتى وألوانًا متعددة. نعم، يجمعهم جميعًا الحرص الشديد على المال حتى في أتفه الأمور: كأن يقطع الواحد منهم المنديل الورقي نصفين ليستخدم كل نصف على حدة، أو يكتب رسائله بحروف ضيقة متشابكة تكاد تُقرأ بعدسة مكبّرة توفيرًا لثمن بطاقة بريدية إضافية. غير أنّ بعضهم يوسّع هذا الحرص ليشمل كل تفاصيل حياته حتى ليكاد حقًّا أن يُشعل النار في أصابعه بدلًا من شمعة، بينما يترك آخرون لأنفسهم متنفسًا ضيقًا يستنشقون منه شيئًا من عبير الحياة. وأما البخلاء الذين يُصوَّرون في الروايات والمسرحيات غالبًا فهم من الصنف الأول، أولئك الذين يُطبِقون قبضتهم على كل شيء دون استثناء. غير أنّ الواقع يختلف؛ ففيه ترى بخلاء لا يصبرون أمام النساء، أو آخرين يُسرفون إسرافًا مدهشًا في الولائم والطعام.

وقد ذكرتُ عَرَضًا من قبل أنّ هواية «سويزو» الوحيدة كانت العناية بمظهره؛ فعندما كان يعمل خادمًا في الجامعة، كان إذا حلّ يوم عطلةٍ نزع عنه ملابسه البسيطة الضيقة، وارتدى زيًّا أنيقًا يجعله يبدو من كبار التجار، وكانت تلك متعته الوحيدة. وكان أكثر ما يُعجبه في ذلك دهشة الطلبة إذا صادفوه في تلك الهيئة الفخمة التي لا تُشبه هيئته في سائر الأيام. لم يكن له في النساء ولا في الغانيات ولا في بنات «الجيشا» شغف، ولم يعرف مطاعم الترفيه ولا جلسات الشراب، بل إن أقصى ما أسرف فيه أن تناول يومًا وجبة «سوبا» في مطعم «رنجيوكو» دون أن يُصحب معه زوجته وأطفاله، إذ كان يرى أن مظهر زوجته لا يليق بما يُحبّ أن يبدو عليه من أناقة. وحين تلحّ عليه في طلب ذلك، كان يردّ بحدة:

ـ لا تكوني حمقاء يا امرأة؛ أنا مضطر لذلك لأجل التعامل مع الزبائن.

ومضت أعوام، وكثرت الأموال بين يديه، فأصبح يرتاد المطاعم أحيانًا، ولكن دومًا في صحبة جماعة، دون أن يذهب بمفرده قط. فلما جاء وقت لقاء «أوتاما» الأول، غلبه التباهي وقال مزهوًّا:

ـ لنجعل اللقاء في «ماتسوجن».

لكن لمّا تحدّد أخيرًا الموعد، برزت مشكلةٌ لم يكن بدٌّ من مواجهتها: إعداد «أوتاما» للقاء. ولو كان الأمر يقتصر على ملابسها فحسب، لهان،

ولكن العجوز أصرّ على أن يُعدّ نفسه هو الآخر، وقد ضاقت المرأة الوسيطة بذلك ذرعًا، لكنها وجدت نفسها مضطرة للقبول؛ إذ كانت «أوتاما» تلبي ما يأمر به والدها دون نقاش ولا جدال، وإن حاولت المرأة أن تثني العجوز عن عزمه، خشيت أن تنهار المفاوضات برمتها.

وكان رأي العجوز كما يلي:

. إن «أوتاما» هي ابنتي الوحيدة والعزيزة، وليست كغيرها من البنات الوحيدات؛ فهي كل ما تبقى لي من دنياي بعد رحيل أهلي وأقاربي جميعًا. عشت معها وحيدًا بعد وفاة أمها التي أنجبتها في سنٍّ متأخرة، إذ لم تُرزق بولد حتى جاوزت الثلاثين، ثم ودّعت الحياة إثر آلام الحمل والولادة. وبعدها ربيت «أوتاما» بمشقةٍ عظيمة، واستأجرت لها المراضع، حتى إذا أتمّت شهرها الرابع أُصيبت بالحصبة التي اجتاحت «إيدو» آنذاك، وظنّ الطبيب أنّها هالكة لا محالة، غير أنّني نسيت عملي وحياتي ووقفت إلى جوارها، حتى منّ الله عليها بالعافية. كان ذلك في العام الثاني لمقتل الإقطاعي العظيم «ناوسكيه إيي»، والعام ذاته الذي قُتل فيه الأجانب في حادثة «ناماموجي». ثم فقدتُ عملي ودكاني وكل ما أملك، حتى خطرت لي فكرة الموت للتخلّص من العناء، لكني لم أملك قلبًا يُميت تلك الطفلة البريئة التي كانت تُضحكني بيديها الصغيرتين، فعشت من أجلها، وتحملت ما لا يُحتمل.

وتابع العجوز قائلاً وصوته يرتجف:

. عندما ولدت «أوتاما» كنت قد جاوزت الخامسة والأربعين، وكنت أبدو أكبر سنًّا بفعل التعب والفقر، حتى إن البعض نصحني بإخلاص قائلًا: «إن عجز فمٌ واحد عن إيجاد القوت، فلعل فمين يقدران»؛ وعرضوا عليّ الزواج بأرملة ذات مال، على أن أُعطي طفلتي للتبني، فرفضت حبًّا في «أوتاما». ربّيتها رغم العناء، وكما يقول المثل «تربية الفقر تجلب الغباء»، فإذا بي أراها تقع فريسةً في يد رجل لا ذمّة له ولا ضمير، جعلها ألعوبةً له. لكن ما يُسلّيني قول الناس إنها فتاة صالحة بارة، ولقد سعيت جاهدًا أن أزوّجها رجلًا كريمًا ذي قدر، غير أنّ أحدًا لم يقبل بها وأبوها مثلي. ورغم ضيق الحال، رفضتُ دومًا أن تكون محظيةً أو عشيقةً لأحد. لكنكِ تقولين إنّ السيد رجل محترم وجاد، و«أوتاما» ستبلغ العشرين قريبًا، فلا حيلة لي إذن. ومع ذلك، يجب عليَّ أن ألقاه بنفسي، وأُسلّمه بيدي جوهرتي الوحيدة التي لا تُقدَّر بثمن.

شعر «سويزو» بعدم الارتياح حين سمع كلام المرأة الوسيطة، إذ بدا له أن الوضع قد انحرف قليلًا عمّا كان يدبّره في خياله. فقد كان يتصوّر أنّ «أوتاما» ستأتي وحدها إلى مطعم «ماتسوجن»، وحينها سيطلب من المرأة الوسيطة أن تنصرف في أقرب وقت ممكن، فيستمتع بجلسته معها وجهًا لوجه بلا حائل. لكن على ما يبدو، خطته تلك قد ذهبت أدراج الرياح، إذ إن

والدها سيأتي أيضًا بصحبتها، مما سيحوّل اللقاء إلى مناسبة ذات طابع رسمي واحتفالي لم يكن في الحسبان.

ولعل السبب في هذا الشعور بالاحتفال الذي خالجه في أعماقه، أنّ القيود القديمة التي طالما كبّلت رغباته بدأت تضعف رويدًا رويدًا، كأنّها فرحة انطلاق كان يشتهيها، وكانت شرطها الأول أن يلتقي «أوتاما» وحدها بلا رقيب. لكن مجيء الأب سيقلب هذا الاحتفال إلى شيء مختلف تمامًا. وحسبما أخبرته المرأة الوسيطة، فالأب والابنة كلاهما يتحلّيان برجاحة العقل. في بادئ الأمر، رفضا معًا فكرة أن تعمل الابنة كمحظية، وتمسّكا بالرفض، غير أنّ المرأة الوسيطة استطاعت أن تدعو «أوتاما» يومًا خارج البيت، وقالت لها:

.أما ترغبين في التخفيف عن والدك الذي تزداد ضائقته يومًا بعد يوم؟

ثم أغرتها بالكلمات وشجعتها حتى أذعنت في النهاية، بل واستطاعت أن تُقنع والدها أيضًا. وحين علم «سويزو» بهذا، غمرته في قلبه سعادةٌ خفيّة لأنه سينال فتاةً تجمع بين الرقة والفطنة وطيب القلب.

لكن مع ذلك، إذا حضر الأب والابنة معًا إلى المطعم، فسيصير اللقاء الأول أقرب إلى مفاوضة رسمية ترسم ملامح المستقبل، لا مجرد لقاء

خاص يفيض بالمشاعر، فتبدّد وهج البهجة في نفسه، كمن صبّ على رأسه الدافئ كوب ماءٍ مثلج.

ومع ذلك، وجد «سويزو» أنّه من الضروري أن يروّج لنفسه كرجل أعمال مرموق، وأن يظهر لهما مقامه الرفيع وثروته، فوافق دون تردد على تحمُّل نفقات تجهيز الاثنين. ذلك لأنه إذا كان يريد أن يحصل على «أوتاما»، فلن يكون من الحكمة أن يُهمل أمر والدها، وإنما يتحتم عليه أن يُحسن إليه أيضًا، فما فعله الآن لم يزد على كونه أمرًا كان سيفعله لاحقًا، ففعله مُقدّمًا. وهكذا سلّم «سويزو» بالأمر واتخذ قراره بتحمّل التكاليف.

وكان المنتظر في مثل هذه الحال أن يسأل الرجل مباشرةً: «كم ستكلّف هذه الترتيبات؟» ثم يدفع المبلغ المطلوب دفعة واحدة. لكن «سويزو» لم يكن من هذا النوع؛ فهو الذي اعتاد أن يهتم بمظهره الفخم، يعرف محلّ حياكة يخصّه وحده دون سواه من عائلته، فذهب إليه وأخبره بما ينوي، وطلب منه أن يخيط ثيابًا تليق بالاثنين.

بقيت مشكلة معرفة المقاسات، فطلب من المرأة الوسيطة أن تسأل «أوتاما» عنها. وكان من المؤسف أن هذا الحرص الشديد من «سويزو»، الذي لم يشأ أن يُعطي المال نقدًا خشية الإسراف، فسّرته «أوتاما» على أنه كرم نبيل منه، وظنّت أنّ امتناعه عن تسليم النقود كان بدافع احترامه لهما وصونًا لماء وجهيهما.

الفصل السابع

إنّ منطقة «أوينو هيروكوجي» قلَّما تحدث فيها حرائق، ولأن ذاكرتي لا تذكر أنّ «ماتسوجن» قد احترق من قبل، فلعل تلك الغرفة ما زالت قائمةً حتى اليوم على حالها. ولأن «سويزو» كان قد طلب من البداية غرفةً صغيرةً في مكانٍ هادئ، فقد دلّوه عليها بعد أن صعد من المدخل المطلّ على الجهة الجنوبية، ومشى خطواتٍ في ممرٍ مستقيمٍ، ثم انحرف يسارًا، فإذا هي غرفةٌ بمساحة ست قطعٍ من حصير «التاتامي».

ولما دخل، كان في الغرفة رجلٌ يرتدي معطفًا نصفيًّا عليه شعار المكان، منهمكًا في فرد مظلّةٍ كبيرةٍ من ورقٍ مقوّى. قالت له النادلة التي أرشدته إلى الغرفة:

ـ تدخل أشعة شمس الغروب المكان ولا تختفي إلا عند غروب الشمس تمامًا.

ثم تركته وانسحبت.

جلس «سويزو» مولّيًا ظهره لموضع الزينة الذي وُضعت فيه مزهريةٌ تحمل غصنًا وحيدًا من زهرة الياسمين، وفوقه لوحةٌ مرسومةٌ باليد بأسلوب «أوكيئه»، لا يُدرى أهي أصليةٌ أم تقليد. وأخذ يتفحّص المكان بعينين نافذتين.

وكان البناء في طابقه السفلي مُحاطًا من الخارج بسورٍ من الخيزران، فحجب عن الغرفة منظر بركة «شينوبازو»، كي لا ينكشف الجالسون للمارّة في الممشى المحيط بالبركة، ذلك الممشى الذي تحوّل بعد زمنٍ طويلٍ إلى ميدانٍ لسباق الخيل، ثم إلى حلبةٍ لسباق الدراجات مع تغيّرات المجتمع الهائلة. وبين السور والمبنى بقي شريطٌ ضيّقٌ من الأرض لا يكاد يتسع ليُسمّى حديقة، لم يُزرع فيه سوى شجرتين أو ثلاث من شجر «الباراسول» الصيني، وقفت جذوعها المصقولة كأنّها مُسحت بقماشٍ مغموسٍ في الزيت، ورُؤيةٌ كذلك عمودٌ حجريٌّ للإنارة، وبعض شجيرات السرو الصغيرة مبعثرة هنا وهناك. أمّا خارج السور، فقد ظلّ الغبار الأبيض يتطاير من تحت أقدام المارة في شارع «هيروكوجي» الذي طالته الشمس، بينما في الداخل كان العشب المرويّ بالماء يتلألأ أخضرَ نضرًا.

لم تمضِ فترةٌ طويلة حتى دخلت النادلة تحمل الشاي الأخضر وطاردًا للبعوض، وسألته عن الطلبات، فردّ «سويزو»:

.لِنؤجّل ذلك حتى يأتي بقية الرفاق.

ثم أشعل سيجارةً وأخذ ينفث دخانها ببطء. وعلى الرغم من أنه شعر في البدء بحرارةٍ خانقةٍ بعض الشيء، إلا أنّ الهواء سرعان ما تلطّف، حتى إنه لم يجد حاجةً لاستعمال مروحة الريش اليدوية القديمة التي تركتها النادلة قبل أن تغادر؛ فقد هبّت بين الحين والآخر نسماتٌ عليلةٌ من جهة الممر، امتزجت بروائحٍ مختلفةٍ مرّت بها من مطبخٍ أو مرحاض.

أسند «سويزو» ظهره إلى العمود القائم في طرف ركن الزينة، وغاص في بحرٍ من التخيّلات وهو يرسم في الهواء دوائرَ دخانٍ من سيجارته. لقد كان يراها في صباها حين يمرّ أمام بيتها فتاةً جميلةً، لكن مهما قيل فإنها كانت آنذاك طفلةً صغيرة. تُرى، أيُّ امرأةٍ صارت اليوم؟ وكيف ستطلّ عليه بعد قليل؟ على كل حال، كان قدوم أبيها العجوز برفقتها أمرًا يضايقه كثيرًا. وأخذ يفكر: هل ثمة حيلةٌ تُفلح في صرف العجوز وإبعاده سريعًا؟ وفي الطابق العلويّ انبعث صوتٌ خافتٌ لدوْزَنة آلة «الشاميسن».

ثم سُمعت خُطى شخصين أو ثلاثة مقبلين من الممر، وأطلت النادلة برأسها أولًا قائلةً:

ـ السادة الضيوف.

ثم تردّد صوت العجوز التي توسّطت في الأمر، بنبرةٍ واهنةٍ تذكّر بصوت صرّار الليل:

. هيا، تفضّلا بالدخول مباشرةً، فالسيد رجلٌ متفهم، ولا حاجة للاستحياء منه.

نهض «سويزو» من مجلسه على الفور، ولما خرج إلى الرواق ليتبين الأمر، أبصر «أوتاما» واقفة تتأمل المكان بعين مَن يطالع شيئًا نادرًا، دون أن يبدو عليها أثر للخوف أو التردد. وأمامها، وقف الأب العجوز حائرًا، مقوّس الظهر، مسندًا جسده إلى الجدار عند الركن. كان وجه «أوتاما» في الماضي مستديرًا ممتلئًا يضفي عليها مسحة من البراءة الطفولية، أما الآن، فقد صار وجهًا نحيفًا، وجسدها اكتسب شيئًا من الرشاقة لم يكن له من قبل. عقدت شعرها بالطريقة التقليدية على هيئة ورقة الجنكو المقلوبة، ولم تضع على وجهها تلك المساحيق الثقيلة التي تلجأ إليها النساء عادة في مثل هذه المواقف، حتى بدا وجهها أقرب إلى الصفاء التام من الزينة. وقد بدا ذلك في عيني «سويزو» مغايرًا تمامًا لما تخيله، بل أجمل بكثير مما كان يظن. ظل يحملق فيها بعينين تلتهمان جمالها، وشعر في دخيلة نفسه برضا غامر.

أما «أوتاما»، فرغم أنها جاءت اليوم مضحيةً بنفسها بعد أن قررت بيع جسدها لتنتشل والدها من هوة الفقر، ولم يكن يعنيها في الأصل من يكون الشاري، فإنها حين وقعت عيناها على نظرات «سويزو» المفعمة بالحب

والاحترام، وقد بدا مستعدًا لها بذوق رفيع لا يخلو من لباقة، خُيِّل إليها أن حياتها التي نذرتها قد عادت إليها لحظةً، وشعرت في قلبها بطمأنينة عذبة.

قال «سويزو» للأب العجوز بأدب جم، مشيرًا بيده إلى الغرفة المخصَّصة لهم:

.تفضل بالدخول من هنا.

ثم التفت إلى «أوتاما»، ودعاها للدخول بلطف:

.هيا.

وبعد أن أدخلهما إلى الغرفة، انفرد بالمرأة العجوز التي تتوسط بين الطرفين، وناولها شيئًا مطويًّا بورق، وهمس في أذنها كلامًا مختصرًا. أظهرت المرأة أسنانًا شوهتها بقايا الطلاء الأسود القديم، وأطلقت ضحكةً غامضة لم يُدرَ أكانت تهزأ أم تُظهر تقديرًا، ثم انحنت مرتين أو ثلاثًا وغادرت، لا يأسف عليها أحد.

عاد «سويزو» إلى الغرفة، فرأى الأب وابنته واقفين عند الباب يتملَّكهما حياء جليل، فحثهما على الجلوس بطمأنينة، ثم نادى النادلة التي كانت تنتظر بالخارج، فحضرت على الفور ومعها شراب الساكي وبعض المقبلات. ناول «سويزو» الكأس أولًا للعجوز، ثم تبادل معه أطراف الحديث،

فاكتشف فيه رجلًا يعيش حياةً بسيطة متواضعة؛ لا يلبس فاخر الثياب ولا يألف ارتياد مطاعم راقية كهذا المطعم إلا نادرًا.

حتى «سويزو»، الذي كان في بداية الأمر منزعجًا من وجود العجوز باعتباره عبئًا، ما لبث أن شعر بعد اندماج المشاعر بينهما أنّ الأحاديث صارت تنساب من القلب إلى القلب، على نحو لم يكن يتوقعه. ومع ما بذله «سويزو» من جهدٍ ليُظهر أجمل ما فيه من خصال، أحسّ بسعادة خفية تغمر صدره، إذ وجد في هذه اللحظة فرصةً ثمينة كي يغرس في قلب «أوتاما» الوادعة شعورًا بالثقة والاطمئنان.

وحين أقبل الطعام، بدا الثلاثة كأنهم أسرة صغيرة خرجت في نزهة جبلية، ثم حطّوا رحالهم في مطعم للراحة. ولأن «سويزو» في حياته اليومية كان معتادًا التسلّط على زوجته وأولاده، فكان يلقى منها أحيانًا مقاومةً وأحيانًا خنوعًا، شعر بعد أن رحلت النادلة، ورأى «أوتاما» تصب له الساكي بخجل أحمَرَّ له وجهها، وسكنت على شفتيها ابتسامة حياء، بسعادةٍ غامرة لم يعرفها من قبل. ومع ذلك، شعر «سويزو» في أعماقه، دون وعيٍ واضح، أنّ هذه السعادة التي لامسته لم تكن إلا طيفًا زائلًا، ولم يذهب به التفكير بعيدًا ليسأل نفسه: لماذا لا يحظى بمثل هذا الشعور في بيته؟ وما هي الشروط التي تكفل بقاء هذه العواطف المصطنَعة حيّة لا يعتريها الفتور؟ وهل هذه الشروط متوافرة فيه وفي زوجته، أم لا؟

انبعث فجأةً من خارج السور صوتٌ يضرب بمقرعةٍ خشبية على إيقاعٍ منتظم. أعقب ذلك صوتٌ يقول:

ـ هيا، دعني أسمع شيئًا من مقطوعتك المفضّلة.

عندها خفتت أنغام آلة «الشاميسن» التي كانت تنساب من الطابق الثاني، وتمسكت النادلة بدرابزين السلّم قائلةً شيئًا لم يُسمع بوضوح. وفي الأسفل غيّر صاحب الصوت نبرته مقلّدًا ممثّلي مسرح «الكابوكي»، وقال:

ـ هيه، إذن إليكم مشاهد «كوتشياما» لأداء «ناريتايا»، ثم مشهد «ناوزاموراي» لأداء «أوتوايا»، ولنبدأ بمشهد «كوتشياما».

وما لبثت النادلة أن جاءت لتبديل قنينة «الساكي»، فقالت بدهشة:

ـ يا للعجب! اليوم يبدو صوته كأنه الممثل الحقيقي ذاته!

استغرب «سويزو» الأمر وقال:

ـ تقولين «الحقيقي» و«المزيّف»، أهناك كثيرون يفعلون ذلك؟

أجابته:

ـ لا، لكن في الآونة الأخيرة، يتجوّل بعض طلبة الجامعة في الأزقة يؤدّون مثل هذه الفنون.

ـ وهل يفعلون ذلك بالمقرعة أيضًا؟

. نعم، يقلّدون كل شيء حتى الثياب والمساحيق. لكننا نميّزهم من أصواتهم فقط.

. إن كان كذلك، فلا بد أنه شخص محدّد.

. أجل، لا يوجد سواه من يفعل ذلك.

ثم ضحكت بخفة وأضافت:

. إذن أنت تعرفه جيدًا!

. لأنه زبونٌ دائم هنا.

تدخّل الأب العجوز متعجبًا:

. عجيب! أفي الطلبة من يملك هذه البراعة؟

لم تُجب النادلة، فاكتفى «سويزو» بأن ضحك بسخرية وقال:

. الغالب أن مثل هذا الطالب يكون فاشلًا في دراسته.

قالها، وفي سرّه كان يفكر في أولئك الطلبة الذين يرتادون متجره بين الحين والآخر؛ منهم من يقلّد المحترفين، ومن يجد متعةً في السخرية من الدكاكين الصغيرة، فيتحدث دائمًا بلهجة ممثلي «الكابوكي». لكنه لم يتوقع قطّ أن يسير أحدهم في الشوارع مؤديًا هذا التقليد بجدّية.

أما «أوتاما»، فقد جلست تنصت في صمت لحديثهم، فنظر إليها «سويزو» قليلًا وسألها:

ـ آنسة «أوتاما»! من هو ممثلك المفضّل؟

فأجابته بهدوء:

ـ لا يوجد ممثل محدّد يعجبني.

وأضاف العجوز موضحًا:

ـ لأننا لا نذهب أصلًا لمسرح «الكابوكي». حتى فرقة «ريوسيزا» التي تقع بجوار بيتنا مباشرة، تذهب بنات الحيّ للتلصص عليها، أمّا «أوتاما» فلم تذهب مرّة. ويبدو أنّ بنات الحيّ حين يسمعن تلك الإيقاعات المحببة: «دون تشان دون تشان»، لا يطقن البقاء في بيوتهن.

وكان في نبرة العجوز رغبةٌ لا إرادية في الفخر والاعتزاز بابنته.

الفصل الثامن

تمّ الاتفاق أخيرًا، وجرى القرار بأن تنتقل «أوتاما» لتقيم في «موئنزاكا».

غير أنّ «سويزو»، الذي ظنّ في بادئ الأمر أنّ هذا الانتقال سيكون أمرًا هيّنًا، وجد نفسه أمام جملةٍ من العوائق لم تكن في الحسبان؛ فقد طلبت «أوتاما» أن يُولى والدها الرعاية والعناية، وأن يكون مسكنه قريبًا من مسكنها الجديد قدر المستطاع، لتتمكّن من زيارته بين الحين والآخر.

ومنذ البداية كانت «أوتاما» تعتزم أن تخصّص الجزء الأكبر مما تناله من نقود لترسله إلى والدها، وأن تُلحق به خادمةً صغيرة تعينه على شؤون الحياة، حتى لا يجد الشيخ الذي تجاوز الستين من عمره في معيشته مشقةً أو ضيقًا. فإذا كان لا بدّ له من ترك ذاك البيت القديم الحقير القابع بجوار محل العربات في «توريجوي»، فقد ارتأت ابنته أن ينقل مسكنه إلى مكانٍ أقرب إليها وأرفق بحاله.

ومثلما كان من المفترض في اللقاء الأول للتعارف أن تُدعى الابنة وحدها، ثم انتهى الأمر بأن جاء الأب العجوز معها، كذلك وجد «سويزو» نفسه،

بعدما كان يظن أنّ الأمر لا يعدو أن يكون إعداد مسكنٍ لمحظيته الجديدة، مطالبًا بتجهيز بيتين اثنين، ليستقبل فيهما الأب وابنته معًا.

وبالرغم من أنّ «أوتاما» شدّدت على أنّها ستتكفّل هي بكل ما يلزم، وأنّها لن تُثقل كاهل سيدها بأدنى عبء، فإنّ «سويزو» لم يملك إلا أن يهتمّ بالأمر بعدما بلغه، إذ لم يكن ليستطيع أن يتجاهله وكأنّه لا علم له به. وزاد على ذلك رغبته الخفية في أن يبدو كريمًا جوادًا في عيني «أوتاما»، تلك الفتاة التي ازداد افتتانه بها بعد لقائهما الأول.

وهكذا، وفي الوقت الذي كان يُهيّأ فيه انتقال «أوتاما» إلى سكن «موئنزاكا»، تقرّر أيضًا انتقال الأب العجوز إلى منزل آخر يقع في «حافة البركة»، كان «سويزو» قد عاينه من قبل. ومهما حاولت «أوتاما» أن تؤكد له أنّها ستتحمّل النفقات من مالها الخاص، فإنّ «سويزو»، وهو يرى تعبها وحرصها، لم يقدر أن يُظهر وجهًا غليظًا عديم الاكتراث، فاضطر أن يتحمّل التكاليف على نحوٍ ما.

دفع «سويزو» ذلك المبلغ بسخاء، فدهشت المرأة العجوز التي توسّطت بينهما، وكادت عيناها أن تخرجا من محجريهما دهشةً غير مرّة.

وحين انقضى انتقال «أوتاما» ووالدها في منتصف شهر يوليو، بدا أنّ «سويزو» قد وقع في سحر أسلوبها الرقيق الذي يليق بعذراء، وفي سلوكها

الهادئ معه؛ فمع أنّه في عمله كمرابٍ كان شديد القسوة، إذ به يُغدق عليها من رِقّته ووده ما لم يكن يظنّه في نفسه.

صار يتردّد كل ليلة إلى «موئنزاكا»، فقط ليجلس إليها ويرى ابتسامتها. ويبدو أنّه كان يُظهر بذلك الجانب الآخر الذي يذكره المؤرخون في بطون كتبهم عن الأبطال العظام.

ومع ذلك، كان «سويزو» يعود أدراجه في كل ليلة دون أن يبيت عندها.

أما المرأة العجوز التي سبق ذكرها، فقد استعانت بها «أوتاما» في جلب فتاة صغيرة للخدمة تدعى «أوميه»، لا يزيد عمرها على الثالثة عشرة. فكانت تلك الفتاة تُعِدّ الطعام في المطبخ، غير أنّ «أوتاما» شيئًا فشيئًا بدأت تشعر بالملل من وحدتها في البيت، وصارت تتمنى في كل مساء لو أنّ سيدها يطرق بابها أبكر قليلًا. وضحكت من نفسها حين أدركت هذه الأمنية التي تسللت إلى قلبها خفيةً.

فقد كانت «أوتاما» في «توريجوي»، حين يخرج والدها إلى عمله وتبقى وحيدةً، تُسلّي نفسها بأشغالٍ يدوية منزلية، وتشجّع نفسها بالتفكير في أنّ ما تنجزه سيُدخل السرور على قلب والدها عند عودته، فلا تشعر بالملل أبدًا، وإن كانت لا تخالط بنات الجيران. أما الآن، وقد زال عنها عناء العيش، فقد عرفت للمرّة الأولى معنى الملل الحقيقي.

ورغم ذلك، فإنّ ملل «أوتاما» كان يسيرًا؛ إذ كان سيّدها يأتي في المساء، فيبدّد وحشتها. أما ما يبعث على الابتسام حقًّا، فهو حال والدها الشيخ الذي انتقل إلى «حافة البركة». فقد كان في ماضيه القريب يُكافح من أجل لقمة العيش، والآن وقد انقشع عنه ذلك الهمّ فجأةً وصارت حياته هانئةً أكثر مما يتخيّل، أخذ يتساءل في حيرةٍ: أحقًّا حدث هذا، أم أنّ ثعلبًا ما قد خدعه .

ثم صار يحنّ إلى تلك الليالي التي كان يقضيها مع «أوتاما» تحت ضوء المصباح الصغير، يتبادلان حديثًا وديًّا بسيطًا لا يقطعه عليهما أحد. وأضحى ذلك الحنين حلمًا جميلاً يؤنسه. ثم طال انتظاره لزيارة «أوتاما» التي وعدته بها. لكن الوقت مضى طويلًا، ولم تأتِ إليه ولو لمرةٍ واحدة.

في الأيام الأولى له في البيت الجديد، وقد استبدّ به الفرح بامتلاك هذا المسكن الجميل، كان الشيخ العجوز لا يُكلّف الخادمة الريفية سوى حمل الماء وإعداد الطعام، بينما يتولّى بنفسه ترتيب البيت وتنظيفه. وكلما خطر بباله نقص شيء، بعث بها إلى حي «ناكاماتشي» لتشتريه. وعند المساء، كان يروي الأشجار القائمة عند حافة الشرفة، منصتًا إلى الأصوات التي تصدرها الخادمة وهي تُعِدّ الطعام في المطبخ، ثم يُشعل لفافة تبغ وينظر إلى ضباب الليل وهو ينساب رويدًا رويدًا مع أصوات الغربان المزعجة القادمة من تلال «أوينو»، وفوق غابة معبد «ناكاجيما» وبركة اللوتس المزهرة. كان

قلبه يفيض بالعرفان والرضا، وكأنّ كل شيء في الدنيا يسير على ما يرام. لكن مع مرور الأيام، راوده شعورٌ مبهم بأن في حياته شيئًا ناقصًا.

ذلك النقص كان غياب «أوتاما»؛ الابنة التي ربّاها بمفرده منذ نعومة أظفارها، والتي كان بينه وبينها ودّ صامت يفهمان به بعضهما بلا كلام، وكانت تسبق خطاه إلى الدار لتنتظره في لهفةٍ صافية. يجلس عند الشرفة يحدّق في لون مياه البركة، ثم يُحوّل بصره إلى المارة: «ها هي سمكة شبوط تقفز فجأة»، «وهذه المرأة تمرّ كأن على قبعتها الغريبة ريش طائر كامل». وفي كل مرة، تتملّكه رغبة جياشة في أن يقول: «انظري يا «أوتاما» إلى...»، لكنّ صمت غيابها يردّه إلى وحدته، فيفيض قلبه بعدم رضاٍ خفيّ.

وبعد مضي ثلاثة أو أربعة أيام، خيّم عليه الكدر شيئًا فشيئًا، حتى صار يُلازم الخادمة، وكلما أتت بفعلٍ ضاق به صدره. غير أنّه، وقد اعتاد العيش بلا خدَمٍ لعشرات السنين، ولِما جُبل عليه من لطف المعشر، لم يكن يُعنفها. ومع ذلك، بقي يشعر بعدم ارتياح؛ إذ كان يجد في كل حركةٍ منها ما يخالف هواه، وكان ذلك لأنها لم تكن «أوتاما» الهادئة الرقيقة التي كانت تُقابل أفعاله بالحلم والوداعة. صارت تلك الخادمة الريفية، بجهلها وغلظتها، تثير في نفسه ضيقًا بالغًا.

حتى إذا جاء اليوم الرابع، أمرها أن تُعدّ الإفطار، فرآها وهي تحمل طبق الحساء وقد غرزت إبهامها فيه، فانتفض صبره وقال لها:

.كفى. دعي الطعام جانبًا واغربي عن وجهي.

وحين فرغ من الطعام، نظر إلى السماء فوجدها ملبدة بالغيوم، لكنها لا تنذر بالمطر، بل بدا الجو لطيفًا رطيبًا أحسن من الأيام المشمسة. فخرج يتمشّى يروّح عن نفسه، لكنه لم يشأ الابتعاد كثيرًا خشية أن تعود «أوتاما» فلا تجده، فكان يعود ليدور في محيط بيته بمحاذاة البركة. وبينما هو كذلك، بلغ الجسر الصغير الذي يصل بين حي «كاياتشو» وحي «شيتشيكنتشو» والمؤدي إلى «موئنزاكا»، وتردّد في أن يذهب لزيارة بيت ابنته، ثم شعر بتردّد واستحياء من رسمية الأمر، وقال في نفسه: «لو كانت أمّها حيّة مكاني، لما حدثت تلك الجفوة بيننا بأي حال». فأحجم عن عبور الجسر، ومضى يسير بمحاذاة البركة يتمتم:

.شيء عجيب... شيء عجيب.

وفجأة، تنبّه إلى أنّ بيت «سويزو» يقع على الجهة المقابلة من خندق المياه، وكانت المرأة التي توسّطت بينهما قد أشارت إليه من شرفة داره الجديدة. وعندما وقع بصره عليه، بدا له كما توقّع: بيت مهيب يحيط به سور طيني مرتفع، وعلى أطرافه أعواد خيزران مسنونة مائلة. صحيح أنّ قصر السيد «فوكوتشي» المجاور، الذي يُقال إنه عالم جليل، بدا أضخم حجمًا، لكنه بطرازه القديم كان أقل هيبةً وزينةً من بيت «سويزو». وقف الشيخ برهة يتأمّل باب المدخل الخلفي المصنوع من الخشب الأبيض،

المغلق بإحكام حتى في وضح النهار، دون أن يخطر بباله أن يطرقه. لكن، دون سبب واضح، هبّت عليه وحدةٌ جارحة جعلته يقف واجمًا شاردًا.

ولو شئنا التعبير عن تلك اللحظة بالكلمات، لقلنا إنه كان شعور أبٍ ضاقت به الحال حتى انتهى به المطاف إلى بيع ابنته محظيةً لرجل.

ومضت الأيام، وانقضى أسبوع كامل دون أن تأتي الابنة لزيارة والدها. بدأ ذلك الشوق العارم الذي كان يعتمل في صدره يخبو شيئًا فشيئًا، ويتراجع إلى أغوار نفسه، ليصعد مكانه طيف من الشكوك تمثل في تساؤله: «يا لها من ابنة! أما إن وجدت في العيش رخاءً فقد نسيت والدها». غير أنّ تلك الشكوك ما كانت إلا هواجس كان يُثيرها في صدره متعمدًا وكأنه يلهو بها، إذ كانت شكوكًا واهية لا تقوى على التشبث بروحه. ورغم أنه حاول أن يُوهم نفسه بهذا الظن، فإنه لم يشعر تجاه ابنته لا بحقد ولا بضغينة. كان الأمر شبيهًا بتلك السخرية المستترة التي يتداولها الناس في مجالسهم، مجرّد تجربة ليقول لنفسه: «لعلّ حالي سيكون أفضل لو كرهتها!».

وفي تلك الآونة، طاف بخاطره هذا التفكير: «إن البقاء حبيس البيت لا يجلب سوى الوساوس والخواطر الكثيرة، ولذا عليّ أن أخرج بين الحين والآخر. فإذا جاءت ابنتي لزيارتي في غيابي، ستأسف لعدم لقائي، وإن لم تأسف فستشعر على الأقل بأنها أهدرت زيارتها سدى، وذلك وحده يكفي». وهكذا أصبح يخرج من داره عامدًا متعمدًا تلك النية.

ذات يوم قصد حديقة «أوينو»، وجلس يستريح على دكّةٍ وارفة الظلال، وعيناه تلاحقان عربات «الريكشا» المغطّاة وهي تمرّ مخترقةً الدروب بين الأشجار، فتراه يتخيل ابنته تأتي إلى البيت فلا تجده فتقف حائرةً مضطربة. وكان في دخيلة نفسه كمن يختبر قلبه: هل سيشعر بالفرح حين يتخيلها تتألم أم لا؟

وفي تلك الأيام كان أيضًا يرتاد ليلًا مجالس الحكايات ليستمع إلى «إينتشو» الحكواتي الشهير، أو يشاهد عروض «التحطيب» التي يقدمها الفنان «كومانوسكيه». حتى وهو جالس بين الجمهور، لم يكن ذهنه يغادر ابنته، فكان يتخيلها تطرق بابه في غيابه فلا تجده. وأحيانًا كان ينتابه خاطرٌ مفاجئ: «أيمكن أن تكون هنا بين الحضور؟» فيروح يُمعن النظر في الفتيات الشابات اللواتي يعقدن شعرهن بالطريقة التقليدية، يتأمل كل واحدة منهن كأنه يبحث فيها عن «أوتاما».

وذات مرة، بعد انقضاء الاستراحة، وقعت عيناه على فتاة تعقد شعرها بالطريقة التقليدية، كانت تتقدم إلى الطابق العلوي في الخلف، وإلى جوارها رجل يرتدي «يوكاتا» ويضع على رأسه قبعة «بنمية» نادرة آنذاك. كانت الفتاة تصعد السلم ممسكة بحافته، ثم تقف دون أن تجلس لتتطلع إلى جمهور الطابق الأول. وظنّ العجوز في لحظة خاطفة أنها ابنته «أوتاما»، غير أنّه ما لبث أن لاحظ أنّ قامتها أقصر، وأن وجهها أكثر استدارة. وكان

ذلك الرجل صاحب القبعة «البنمية» يصحب خلفه ثلاث فتيات أخريات يربطن شعورهنّ بطرائق شتى، بدا أنّهنّ جميعًا من بنات «الجيشا» أو ممن لا يزلن تحت التمرين.

وفي تلك الأثناء، همس طالبٌ يجلس غير بعيدٍ عن العجوز قائلاً:

.ها قد جاء الأستاذ «فوكوتشي».

وعند نهاية العرض، خرج الجمع من القاعة، فأبصر العجوز امرأة تحمل فانوسًا ورقيًّا كبيرًا ذا حافة طويلة، كُتب عليه بالخط الأحمر المائل: «مطعم فوكينوكي»، تودّع الرجل صاحب القبعة «البنمية»، وقد اجتمع حوله بنات «الجيشا» ومن تحت التمرين. ومضى العجوز يسير مع تلك الجماعة، يتقدّمهم حينًا ويتأخر عنهم حينًا، حتى بلغ منزله آخر الأمر.

الفصل التاسع

بالطبع كانت «أوتاما» كذلك تريد الذهاب لزيارة والدها الذي لم تفارقه منذ صغرها، لترى كيف يعيش الآن. ولكن كان سيدها يأتي كل يوم، فمن قلقها أن يتعكر مزاجه إذا جاء ووجدها غائبة، مرت الأيام يومًا بعد يوم وهي لا تستطيع الذهاب لزيارة والدها على الرغم من حرصها على ذلك. كان سيدها لا يبيت حتى الصباح. وفي الليالي التي يبكر فيها في العودة لبيته يرحل في حوالي الساعة الحادية عشرة. كذلك يأتي أحيانًا ويجلس في مواجهة مجمرة الحطب قائلًا إنه مر هنا للمكوث قليلًا وسيغادر سريعًا لأنه لديه اليوم ما يجب عليه عمله في مكان آخر، ويدخن تبغه ثم يرحل. ولا يوجد يوم يمكن فيه توقع عدم مجيئه للمنزل، ولذا لا تستطيع أن تعقد النية على الخروج بكل ثقة. ومع أنه من المفترض ألا توجد عقبة في الخروج أثناء النهار، لكن الخادمة التي لديها تعتبر طفلة صغيرة فلا يمكن الاعتماد عليها في أي شيء مطلقًا. بالإضافة إلى ذلك كانت «أوتاما» لا ترغب في الخروج نهارًا حتى لا يراها الجيران. لدرجة أنها في بدايات ذهابها إلى الحمام

الشعبي أسفل منحدر «موئنزاكا»، كانت تجعل الخادمة الصغيرة تذهب أولًا لتفقد الوضع قائلة لها :

. اذهبي وانظري هل هو مزدحم الآن أم لا .

ثم تذهب خفية بعد ذلك .

ولكن في اليوم الثالث لانتقال «أوتاما»، التي هي بهذه الدرجة من الحياء والتهيب، إلى المنزل الجديد، حدث ما أوقعها في دهشة بالغة. فمع أنها كانت قد اتفقت في اليوم الأول من انتقالها مع بائع للخضراوات وبائع للأسماك أن يأتياها إلى المنزل ومعهما دفتر الحساب اليومي، إلا أن بائع الأسماك لم يأتِ في ذلك اليوم، فأرسلت «أوميه» الصغيرة إلى أسفل المنحدر، لتشتري شرائح من السمك المقطع أو ما شابه. لم تكن «أوتاما» ترغب في تناول الأسماك بشكل يومي. فوالدها الذي لا يشرب الخمر كان رجلًا لا يمانع في تناول أي طعام ما دام ليس منه ضرر على الجسم، ولذا تأصلت بها عادة تناول أي طعام متاح في المنزل مع الأرز. ولكن في أحد الأيام سمعت أحد الجيران في بيتهما في الحي الفقير يقول :

. تمر عدة أيام وأصحاب هذا المنزل لا يأكلون الأسماك .

ولذا كان شعورها أنه يجب عليها ألا تدع «أوميه» تحس بعدم الاكتفاء، فهذا إجحاف لسيدها الذي يبذل لها بسخاء، ولهذا جعلتها تذهب

خصيصًا إلى محل الأسماك أسفل المنحدر لترى ماذا عنده. ولكن «أوميه» عادت ووجهها يمتلئ بالدموع. وعندما سألتها ماذا حدث كانت إجابتها ما يلي :

. عندما وجدت محلًّا للسمك ودخلته، كان يختلف عن المحل الذي يحضر لبيتنا الأسماك وكان صاحبه غائبًا وتوجد زوجته فقط. ويبدو أن زوجها عاد من ضفة النهر ووضع ما يمكن وضعه في المحل من أسماك، ثم بدأ في التردد على منازل الزبائن للبيع .

كانت في المحل أسماك كثيرة تبدو طازجة وجديدة. وانتبهت «أوميه» إلى كومة من سمك «الشيم» الصغير ذي لون رائع وجذاب، وحاولت أن تسأل عن الثمن. فقالت لها الزوجة :

.أنتِ خادمة ولم أرك من قبل. من أي منزل أتيت؟

فشرحت لها «أوميه» أنها أتت من هذا المنزل. وعندها تحول وجه المرأة فجأة إلى العبوس الشديد، وقالت :

.أحقًّا؟ أنت مسكينة لا ذنب لك، ولكن ارحلي من هنا، وقولي لسيدتك ما يلي: «لا توجد في هذا المحل أسماك نبيعها لمحظية مرابٍ جشع ».

وبعد ذلك أشاحت بوجهها وظلت تدخن التبغ غير مبالية. ولأن «أوميه» كانت محبطة للغاية فلم تجد في نفسها رغبة في الذهاب لمحل

أسماك آخر، وعادت للبيت مسرعة. ثم كررت أمام سيدتها ما قالته زوجة السماك بكل تفاصيله وهي تبدو مسكينة ومتأثرة .

شحب وجه «أوتاما» أثناء سماعها لذلك لدرجة أن شفتيها شحبتا أيضًا. ثم ظلت صامتة لفترة. تعقدت أنواع مختلفة من المشاعر داخل قلب تلك الفتاة التي لم تتعود على المجتمع بعد، وصنعت فوضى عارمة، ولم تستطع «أوتاما» أن تفك عقدة تلك الخيوط المتشابكة وتفحصها بنفسها. فقد أضافت تلك المشاعر المضطربة ضغوطًا قوية على قلب تلك العذراء البريئة التي تم بيعها في سوق النخاسة، جعلت كل الدماء التي تجري في عروقها تتجمع في قلبها، لتفقد لون وجهها، وتجعل العرق البارد ينساب من ظهرها. وفي مثل هذا الوقت، يحدث أن الأمر الذي ليس له أهمية على الإطلاق هو الذي يخطر أولًا على الذهن، فقد فكرت «أوتاما» أول ما فكرت، أن «أوميه» بعد ما حدث، ستقول إنها لن تستطيع البقاء في هذا البيت بعد الآن .

أما «أوميه» نفسها فقد ظلت تحملق في وجه سيدتها الذي شحب لقلة جريان الدماء فيه، وفهمت بشكل ما أن سيدتها منزعجة للغاية، ولكنها لم تفهم سبب انزعاجها هذا. لقد عادت بعد أن أصابها الغضب ولكنها تنبهت الآن إلى أنه لا يوجد ما يؤكل في وجبة الغداء وأن بقاء هذا الأمر كما هو لا يمكن السكوت عليه. حتى النقود التي أعطتها لها سيدتها وخرجت بها منذ

قليل ما زالت محشورة في حزام «الكيمونو» كما هي. ثم وقفت وهي تنظر لوجه «أوتاما» وقالت لها كأنها تواسيها :

. حقًّا لا يوجد مثل تلك البائعة المقيتة أبدًا. من ذا الذي يشتري سمكًا من مثل هؤلاء الناس؟ يوجد محل آخر بالجوار على مقربة من المعبد الصغير بعد محلهم، سأذهب في الحال وأشتري منه .

تأثرت «أوتاما» لحظة وفرحت أن «أوميه» تدافع عنها، فأومأت بلا وعي بالموافقة وهي تبتسم. فخرجت «أوميه» على عجل في اللحظة ذاتها .

ظلت «أوتاما» بعد ذلك على الحالة نفسها بدون حركة. تراخت قليلًا حالة الضغط النفسي التي كانت عليها، وبدأت تفيض تدريجيًّا من عينيها الدموع التي اندفعت، لذا أخرجت من كُم ردائها منديلًا ودفعتها به. ولا تسمع من صدرها إلا صوتًا وحيدًا هو صرخة: «وا حسرتاه! وا حسرتاه!». كان ذلك الصوت هو منبع حالة الفوضى العارمة سالفة الذكر. هي بالتأكيد لا تكره زوجة السماك التي لا تريد أن تبيع لها، ولا تشعر بالحسرة ولا بالحزن لأنها عرفت أنها أصبحت غير مرغوب فيها كمشترٍ، وبالطبع هي لا تحقد على «سويزو» بعد أن عرفت أن من أوكلت إليه أمرها مرابٍ، ولا تشعر بالحسرة ولا بالحزن لأنها مضطرة أن توكل أمرها إلى رجل مثله. لم يكن السبب شيئًا من ذلك كله. بالطبع كانت «أوتاما» تعلم بشكل مبهم أن المرابي شخص قميء ومخيف ومكروه من الناس، ولكن لأن والدها لم

يسبق له أن اقترض أموالًا من أحد إلا محل الرهونات، وحتى إن كان صاحب المحل قاسي القلب ولم يرهن لوالدها بالمبلغ الذي يريده، فمع ذلك كان والدها يقع في ضيق فقط، ولا يصل الأمر لدرجة أن يحقد على صاحب المحل لرفضه القاطع، ولذلك فحتى لو تعلمت أن المرابي مخيف، مثلما يتم تخويف الأطفال بالعفريت أو بالشرطي، فلم تكن تحمل شعورًا حادًّا بصفة خاصة تجاهه. إذا كان الأمر كذلك، فما هو يا ترى سبب الحسرة؟

في الواقع شعور الحسرة الذي تحمله «أوتاما» لم يكن موجهًا في شكل حقد تجاه المجتمع أو تجاه البشر. إذا كان مع ذلك يوجد شيء ما توجه حقدها إليه، فلربما يمكن القول إنها توجهه إلى قدرها ومصيرها. فمع أنها لم تفعل أي شر في حياتها، إلا أنه يجب عليها أن تتحمل الاضطهاد من الآخرين. وهي تشعر بالألم والمعاناة من ذلك. ولذا فشعور الحسرة يشير إلى ذلك الألم. عندما أحست بأنها قد خُدعت وأُلقي بها في القمامة، وقتها قالت «أوتاما» لأول مرة: «وا حسرتاه!»، وبعد ذلك فقط عندما أصبح عليها أن تصير محظية لشخص آخر كررت عبارة «وا حسرتاه!»، والآن ليس الأمر مجرد أنها محظية، ولكن عندما علمت أنها صارت محظية لمرابٍ مكروه من الناس، الحسرة التي تآكلت أركانها بعد أن دهمتها تروس «الزمن» بين الأمس واليوم، وبهت لونها بعد غسلها بماء «اليأس»، ظهرت

تلك المرة واضحة المعالم والظلال، غامقة اللون، أمام بصيرة «أوتاما»، وإذا حاولنا أن ندلل عنوة بالمنطق لنعرف ماهية الشيء الذي جعل قلب «أوتاما» يكتئب، ربما سيكون ذلك هو أول ما نلاحظه .

بعد مرور فترة قامت «أوتاما» وفتحت خزانة الملابس وأخرجت من الحقيبة، التي يشبه جلدها جلد الفيل، صدرة من قماش أبيض كانت قد صنعتها بنفسها وربطتها حول خصرها، ثم تنهدت تنهيدة عميقة وذهبت إلى المطبخ. حتى لو كانت هذه الصدرة الحريرية مثل غيرها، ولكنها كانت أفضل ملابسها، ولذا فقد كانت لا ترتديها عند دخولها المطبخ. فقد كان سيدها يكره حتى مجرد اتساخ ياقة «اليوكاتا»، لدرجة أنها تثني منديلًا وتضعه حول رقبة الرداء التي تلامس قصة شعرها المجدولة .

كانت «أوتاما» وقتها قد هدأت بالفعل واسترخت. فاليأس هو أكثر التأثيرات التي خبرها قلب تلك المرأة. لو كانت روحها تذهب في هذا الاتجاه، فكأنها مثل الآلة التي قد وضع لها زيت، كانت عادتها أن تتحرك في سلاسة ويسر .

الفصل العاشر

في إحدى الليالي جاء «سويزو» وجلس أمام الجهة الأخرى من مجمرة الحطب. كانت «أوتاما » من أول ليلة عندما ترى «سويزو» داخلًا إلى المنزل تجهز وسادة وتضعها في الجهة المقابلة من المجمرة ليجلس عليها . فيجلس «سويزو» متربعًا على تلك الوسادة، ويتجاذب معها أطراف الحديث عن أحواله وهو يدخن. وكانت «أوتاما» تحس بعدم وجود شيء تفعله، فتجلس في مكانها المعتاد تلمس حافة المجمرة، أو تعبث بملقاط حطب النار، وترد عليه بكلمات قليلة في خجل . ويجعلك وضعها ذلك تعتقد أنها لو جلست بعيدًا عن نار المجمرة فستحتار في إيجاد شيء تفعله. لدرجة يمكن القول معها إنها تستخدم مجمرة الحطب كدرع تحمي صدرها قليلًا في مواجهة عدو. وتنسى «أوتاما» نفسها فجأة أثناء اندماجها لفترة في الحديث فتتحدث طويلًا. ولكن ذلك على الأغلب لم يكن يزيد على خبرتها الضئيلة بمشاعر الفرح والغضب والحزن والمتعة خلال السنين التي عاشتها مع والدها بمفردهما. كان «سويزو»، أثناء سماعه لمحتوى ذلك الحديث، كأنه يستمع إلى غناء حشرة «جدجد الجرس» قد اعتنى بها في

قفص، يسمع صوتها الجميل ويبتسم بلا وعي. وعندها تنتبه «أوتاما» فجأة إلى نفسها وهي تتحدث بهذا الشكل، يحمر وجهها، وتختصر حديثها بسرعة، وتعود إلى حالتها السابقة في المشاركة في الحديث بأقل قدر من الكلمات. كانت كل كلمات «أوتاما» وتصرفاتها في غاية العفوية والبراءة، وإذا نظرنا لها بعيني «سويزو» المعتاد على فحص الأمور من منظور ما، بعين في غاية الحدة والصرامة، فهو يراها وكأنه ينظر إلى ماء حوض في غاية النقاء والطهر، يمكن النظر بحرية إلى كل ركن فيه بوضوح من دون أن يعيقه أي عائق . كانت متعة «سويزو» بهذا الحديث وجهًا لوجه تشبه استمتاعه بالاسترخاء وتدفئة الجسم في حمام به ماء ساخن بدرجة مناسبة جدًّا، بعد يوم عمل شاق تعبت فيه يداه وقدماه . ولأن تذوق هذه المتعة كان بالنسبة لـ«سويزو» تجربة جديدة تمامًا، فمنذ تردده على هذا المنزل، وكأنه وحش بريٌّ قد ألف البشر، اكتسب «سويزو» ثقافة من نوع ما من دون وعي منه .

وبعد مرور ثلاثة أو أربعة أيام، عندما جلس متربعًا كما تعود في مواجهة مجمرة الحطب، انتبه «سويزو» تدريجيًّا إلى أن «أوتاما» ليست في حالة هادئة، فرغم عدم وجود شيء محدد تفعله، فإنها تقف ثم تتحرك ثم تعود. لقد كانت تستحي بالفعل منذ البداية، فلا تجعل عينيها تلتقيان

بعينيه ولا ترد سريعًا على أسئلته، ولكن الليلة على وجه الخصوص يبدو من سلوكها أنه يوجد أمر ما .

قال «سويزو» وهو يضع التبغ في الغليون :

. ماذا بكِ! هل تفكرين في شيء؟

قالت «أوتاما »:

. لا شيء .

وهي تفتح خصيصًا درج مجمرة الحطب المقفول، وتنظر داخله من دون أن يوجد شيء تبحث عنه، ثم نظرت بعينيها الواسعتين إلى «سويزو»، عينيها اللتين لا تعرفان سحر الحكايات القديمة، ولا تكادان تستطيعان أن تخفيا داخلهما أسرارًا كبيرة .

لم يستطع «سويزو» إلا أن ينشرح رغمًا عنه، فيزيل العبوس الذي كان قد ملأ وجهه رغمًا عنه أيضًا. وقال :

. ليس الأمر كما تقولين إطلاقًا. فكل شيء مكتوب على وجهك بدقة. مكتوب: «أنا في ورطة، ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟ ».

على الفور احمر وجه «أوتاما» من الخجل، ثم ظلت صامتة لفترة. كانت تفكر كيف تقول ما تريد قوله. ويبدو أن حركة تلك الآلة دقيقة الصنع كانت واضحة ومكشوفة .

. لقد مرت بالفعل فترة طويلة جدًّا وأنا أفكر في ضرورة الذهاب إلى بيت والدي لزيارته .

لا يمكن توقع ماذا ستفعل الآلة دقيقة الصنع حتى لو أمكن رؤية حركتها. كما أن الحشرات تمتلك خاصية مشابَهة البيئة لتحمي نفسها من الكائنات الأكبر والأقوى منها، كذلك الأنثى تكذب للغرض نفسه .

ضحك وجه «سويزو» وقال لها بنبرة من يعنف طفلًا :

. ما هذا؟ على الرغم من أنه انتقل للسكن في «حافة البركة» على بُعد مرمى حجر منك، ألم تذهبي بعد للقائه؟ لو فكرنا في قصر «إيواساكي» المواجه، فيمكن اعتباره يسكن معك في المكان نفسه. الآن لو أردتِ الذهاب لرؤيته لاستطعتِ ذلك، ولكن على أي حال من الأفضل فعل ذلك في الصباح .

نظرت «أوتاما» التي كانت تحرك الرماد بسيخ النار إلى وجه «سويزو» وكأنها تستريح من فعل ذلك :

. ولكن السبب هو التفكير في أمور عدة .

. كفى مزاحًا، لا يستدعي أمر كهذا أي تفكير. إلى متى ستبقين طفلة صغيرة؟

كان الصوت هذه المرة حنونًا .

انتهى هذا الحديث عند هذا الحد. وفي النهاية قال «سويزو» لو كان الأمر مزعجًا لهذه الدرجة، فيمكنه المجيء بنفسه في الصباح واصطحابها إلى بيت والدها على بعد أربعة أو خمسة طرق .

كانت «أوتاما» مؤخرًا تفكر بأشكال مختلفة. عند لقاء سيدها، تجده أمامها إنسانًا يُعتمد عليه، إنسانًا لطيفًا ورحيمًا، تفكر بدهشة لماذا يختار مثل هذا الرجل عملًا ممقوتًا مثل عمله؟ ثم تفكر في أشياء مستحيلة مثل ألا يمكن أن تتناقش معه وتجعله بأي شكل يختار عملًا آخر أكثر احترامًا؟ ولكنها لم تعتقد بعد ولو قليلًا أنه شخص كريه .

أما «سويزو» فقد عرف بشكل ضئيل للغاية أن «أوتاما» تخفي أمرًا ما في أعماق قلبها، وحاول أن يجرب الكشف عنه، ولكنها تقول مثل الأطفال: «لا يوجد شيء». وبعد تخطي الساعة الحادية عشرة ليلًا وعند مغادرته لبيت «أوتاما»، وعندما يفكر وهو يسير هابطًا بروية منحدر «موئنزاكا»، يبدو له أن شيئًا ما لا يزال مترسبًا في تلك الأعماق. لا يمكن لعيني «سويزو» الحادتين الخبيرتين بعديد من الأمور أن تجعلا هذا الأمر يفلت منهما.

جرب «سويزو» أن يطلق لخياله العنان ليتوقع ويخمن أنه على الأقل يوجد شخص ما أبلغ «أوتاما» شيئًا جعل مشاعرها تصبح مستاءة، ولكن مع ذلك انتهى الأمر وهو لا يعرف من الذي قال، وماذا قال .

الفصل الحادي عشر

في الصباح التالي، عندما وصلت «أوتاما» إلى منزل والدها في «حافة البركة»، كان قد انتهى لتوه من تناول وجبة الإفطار. أوتاما، التي لا تستغرق وقتًا طويلًا في وضع مساحيق التجميل، خرجت مسرعة وهي قلقة من أن تكون بكرت أكثر من اللازم. ولكن العجوز الذي يصحو دائمًا مبكرًا كان قد كنس أركان مدخل الباب، وجعله نظيفًا جميلًا، ورش ماء، ثم غسل يديه وقدميه وارتقى فوق حصير «التاتامي» الجديد وأنهى لتوه وجبة الإفطار وحيدًا كالمعتاد .

مع أن محلًّا لبنات «الجيشا» أُنشئ مؤخرًا على بعد بيتين أو ثلاثة، وأحيانًا يكون هناك إزعاج في المساء، إلا أن البيتين على الجانبين يشبهان بيته ومغلقان بأبواب شبكية، وفي أثناء الصباح يكون الجوار هادئًا وساكنًا تمامًا. وعند النظر من الشرفة الخارجية، ومن بين فروع أشجار الصنوبر يمكن رؤية أفرع أشجار الصفصاف التي تهتز قليلًا مع نسمات الصباح المنعشة، وتوجد على الجانب الآخر، أوراق نبات اللوتس النابتة على كامل سطح البركة، ثم وسط تلك الخضرة تُرى كذلك زهور قد تفتحت هذا

الصباح تبدو كأنها حمراء باهتة في أماكن متفرقة. يقال إن البيت المواجه ناحية الشمال يكون باردًا شتاءً ولكن يستطاب السكنى فيه صيفًا .

منذ أن وعت «أوتاما» على الدنيا، وهي تضع الخطط لما يجب أن تفعله من أجل راحة والدها لو قدر لها ذلك، وكانت تفكر في العديد من هذه الأشياء، ولكنها عندما ترى الذي أمام عينيها الآن، يمكن القول إن أمنية حياتها قد تحققت بالفعل، ولم تكن تقدر على إخفاء شدة سعادتها لذلك. ولكن تلك السعادة كانت تختلط معها نقطة واحدة من المرارة. لو لم تكن تلك النقطة موجودة، فإلى أي درجة ستكون سعيدة بلقاء والدها هذا الصباح؟ تشعر بالغيظ العميق تجاه معاكسة هذه الدنيا لها .

عندما فُتح باب البيت الذي لم يفتحه زائر من قبل، تنبَّه والدها الذي انتهى من الطعام ووضع عصوي الأكل، ويشرب من كوب الشاي الأخضر، فوضع الكوب، ونظر في اتجاه مدخل البيت. وعندما سمع صوت «أوتاما» تصيح: «أبي» وهي بعد محجوبة وراء الجدار المزدوج المصنوع من العيدان الخشبية، تغلب على رغبته في أن يقف على الفور ويخرج لاستقبالها، وظل جالسًا في مكانه لا يتحرك. ثم انشغل في التفكير بحثًا في داخله عما هي الكلمات التي يوجهها لها. فكر مثلًا أن يقول لها: «من الجيد أنك لم تنسي أباك بعد»، ولكنه عندما رأى ابنته قد دخلت وجاءت بجواره متلهفة للقائه

وقد بدا عليها الاشتياق له، لم يستطع فمه أن ينطق بتلك الكلمات، وظل ينظر إلى وجه ابنته صامتًا وهو غير راضٍ عن نفسه بسبب فعلته تلك .

يا لها من ابنة جميلة! في الأحوال العادية كانت مصدر فخره، ولم يجعلها تفعل أي شيء عنيف أثناء فقرهما، وحرص على أن تظل جميلة ونقية، ولكن عند مرور حوالي عشرة أيام من دون أن يراها، أحس وكأنها ولدت من جديد. لم تكن «أوتاما» تترك أوساخًا تتراكم على بشرتها مهما كانت حياتها مليئة بالأعمال، وكأنه شيء غريزي فيها. ولكن ما زالت صورة «أوتاما» عنده كالجوهرة غير المصقولة، حتى مع المقارنة بين الأمس واليوم حيث أصبحت تحرص بوعي على صقل جمالها. حتى لو كانت نظرة أب إلى ابنته، أو نظرة رجل عجوز إلى فتاة شابة، فيظل الجميل جميلًا. ثم تحت الجبروت الطاغي للجمال الذي يلين القلب البشري، لا يستطيع حتى لو كان والدًا أو عجوزًا إلا الخضوع لتلك القوة .

كانت نية العجوز الذي صمت متعمدًا، أن تكون ملامح وجهه عابسة، ولكن رغمًا عنه تهللت أسارير وجهه في النهاية. ولم تستطع «أوتاما» لفترة من الوقت نطق الأمور العديدة التي فكرت في التحدث إليه عنها بعد انتقالها إلى بيئة جديدة، وأخذت تنظر إلى وجه أبيها بفرح وسرور، لأنها مع رغبتها الشديدة في مقابلته، ظلت عشرة أيام لم تلقه، وهي التي لم تفارقه يومًا واحدًا منذ ولادتها وحتى الآن .

ظهرت الخادمة من المطبخ، وقالت في نبرات سريعة عالية :

. هل يمكنني أن أرفع صينية الطعام؟

«أوتاما»، التي لم تعتد بعد عليها، لم تستطع أن تفهم ماذا قالت. لم يكن يوجد أي تناسق أبدًا بين شعر رأسها الصغير الملفوف حول مشط، والوجه الممتلئ الذي يوجد تحته. وكذلك كان هذا الوجه يراقب «أوتاما» بلا استحياء وبتعجب شديد .

قال العجوز وهو يدفع الطاولة إلى الأمام :

. أسرعي برفع الطاولة وأحضري شايًا جديدًا، الشاي ذا العبوة الزرقاء الذي على الرف .

أخذت الخادمة الطاولة ودخلت إلى المطبخ .

قالت «أوتاما »:

. لا، ليس بالضرورة أن أتناول ذلك الشاي الفاخر .

قام العجوز وقال :

. لا تمزحي. بل سأقدم لكِ حلوى مع الشاي .

ثم أخرج من الخزانة علبة معدنية وأفرغ مقرمشات البيض في صندوق الحلوى الذي أمامها .

. هذه الحلوى مصنوعة في منزل خلف محل «هوتان» تمامًا. هذا المكان هنا رائع في التسوق. في السوق الجانبي بالقرب منا يوجد كذلك محل «جوئن» الذي يبيع طعام «تسوكوداني ».

.حقًّا! أتذكر عندما ذهبت معك يا أبي لسماعه يقول «الراكوجو »

في «ياناجيهارا » ، تحدث عن وليمة أو ما شابه، وقال: «إن طعمها في غاية الجودة، مثل طعم «تسوكوداني» الذي أبيعه في محلي»، جاعلًا الجميع يضحك؟ إنه حقًّا عجوز سعيد. عندما يرتقي إلى المقعد العالي يلف مؤخرته الضخمة فجأة ويجلس. وهذا يجعلني لا أتمالك نفسي من الضحك. من الأفضل لك أنت أيضًا يا أبي أن تسمن إلى هذا الحد .

قال العجوز وهو يقدم المقرمشات إلى ابنته :

.لا، إلا هذا، إلا أن أكون في سمنة «جوئن »!

في أثناء ذلك جاء الشاي، وتحدث الأب والابنة حديثًا لا يربطه شيء وكأنهما كانا معًا حتى الأمس وقبل الأمس من دون أن يفترقا. قال العجوز ما يلي فجأة وكأنه يقول شيئًا صعب القول :

.كيف حالك؟ هل يأتي إليك سيدك من وقت لآخر؟

بعد أن قالت «أوتاما»: «نعم» فقط، ظلت قليلًا في حيرة كيف ترد. فليس ما يأتيه «سويزو» يُسمى من وقت لآخر قط، بل يأتي كل ليلة، ولا

يوجد يوم لا يأتي فيه. لو كانت قد ذهبت لبيت عرسها وكان السؤال: «هل العلاقة جيدة؟» لربما كانت تستطيع الإجابة بوجه مشرق صافٍ: «إن كل الأمور على خير ما يرام اطمئن واسترح». ولكن إذا نظرت إلى وضعها الحالي هذا، فالقول إن سيدها يأتي كل يوم أمر تحس تجاهه ببعض التأنيب ولذا يصعب قوله. فكرت «أوتاما» لفترة، ثم قالت :

. الوضع جيد، ويحسن بك يا أبي أن تطمئن تمامًا .

قال العجوز :

. إذا كان الأمر كذلك فلا بأس .

ولكنه شعر في مكان ما بعدم الرضا عن إجابة ابنته. لقد صار السائل والمجيب يقولان الجمل مغلفة بالغموض بلا وعي . لقد صار الاثنان اللذان كانا فيما مضى وحتى الآن لا يحملان فيما بينهما أي نوع من الأسرار ويتصارحان بكل شيء، على الرغم من كرههما لذلك، يجب عليهما التحدث معًا كالغرباء بحديث مؤدب يبدو به نوع ما من الأسرار. حتى المرة التي حدثت ونُصب عليهما من الزوج الشرير، حتى لو شعرا بانهيار كرامتهما أمام الجيران، فقد كان إحساسهما القلبي كأب وابنته أن الخطأ بأكمله يقع على الزوج، لذا لم يكن لديهما أي حرج أو خجل من الحديث لبعضهما البعض. ولكن هذه المرة تختلف، فبعد أن اتخذ الأب وابنته ذلك القرار الذي

اتخذاه وسارت الأمور على ما يرام وأصبحا في معيشة رغدة، ذاقا طعم الحزن في وجود ظلال مظلمة في الحوار الحميم بين الأب وابنته. بعد مرور فترة أحس الأب أنه يريد سماع إجابة مفصلة أكثر وواقعية من فم ابنته، فجرب أن يسألها من ناحية أخرى قائلًا :

. تُرى أي نوع من الرجال هو؟

قالت «أوتاما» وهي تميل برأسها قليلًا :

. حسن .

ثم أضافت بنبرة وكأنها تتحدث لنفسها :

. لا أعتقد بأي حال أنه شخص شرير. لم تمر بعد أيام كثيرة، ولكنه لا يخاطبني بكلمات فظة أو عنيفة .

قال العجوز وملامح وجهه لا تدل على الاقتناع :

. حقًّا! ليس هناك أي افتراض أنه رجل شرير !

نظرت «أوتاما» إلى وجه والدها، وشعرت فجأة بخفقان قلبها. ومع تفكيرها أن الآن هو أفضل وقت لمحادثة والدها بما أتت اليوم لتحدثه عنه، ولكن لأنه من الصعب عليها أن تسبب مزيدًا من الألم والمعاناة لوالدها، خاصة بعد أن فعلت كل ما فعلت لتجعله مرتاحًا ومطمئنًّا أخيرًا في

حياته. ولأنها فكرت في ذلك، تحملت «أوتاما» شعور القلق من اتساع الفجوة بينها وبين والدها، وغيرت مجرى الحديث إلى شيء آخر بعد أن قررت في نهاية الأمر أن تعود بما جاءت به من سر كما هو لتضيفه إلى الأسرار الكامنة في منطقة الظل، من دون أن تفصح عنه .

قالت «أوتاما »:

. طبعًا، فهو شخص قد فعل العديد والعديد من الأمور ليصبح بشكل عصامي من الأغنياء، فقد كنت في غاية القلق لعدم معرفتي بطبيعته إلى أي درجة. على كل حال، كيف أحسن قول هذا يا ترى؟ حسنًا، هو شخص يحمل صفات الرجولة الحقة. في قرارة نفسه هو كذلك، ولكن لا أفهم لماذا يحاول أن يبذل جهده من خلال قوله وفعله في إظهار ذلك الأمر للآخرين. ولكن حتى لو أنه يتعمد ذلك مسبقًا ألا يحسن بنا تجاهل التفكير في ذلك يا أبي؟

ورفعت نظرها لترى وجه أبيها .

مهما كانت المرأة صادقة، في هذه الحالة بخلاف الرجل، لا تعاني كثيرًا من إخفاء ما تحمله في قلبها من أمور، وقول شيء آخر. ثم في هذه الحالة ربما يمكن القول إن كثرة كلام المرأة وحديثها الكثير، يعتبر أكثر مشاعر المرأة صدقًا .

. حسنًا ربما كان الأمر كذلك. ولكن ماذا بك؟ ألا تتحدثين بطريقة كلام وكأنك لا تثقين في سيدك؟

ابتسمت «أوتاما »:

. لقد صرت تدريجيًّا أكبر مما كنت في السابق يا أبي. وأنوي ألا أكون بعد الآن هدفًا لأن يسخر مني أحد . ما رأيك ألم أصبح قوية الشكيمة؟

شعر الأب أن ابنته التي كانت دائمًا تعامله برفق، قد وجهت له بشكل نادر نصل حربة، فنظر إلى ابنته بوجه يبدو عليه القلق :

. نعم. لقد عشت في هذه الدنيا يسخر مني الناس باستمرار، ويعاملونني كثيرًا على أنني غبي. ولكن النفس أريح لها أن تُخدع من أن تَخدع. يجب على المرء ألا يتعامل بجحود تجاه الناس في أي تجارة أو عمل يقوم به، وأن يحرص على من أسدوا له جميلًا .

. جيد يا أبي. ألم تكن تقول لي دائمًا إنني سليمة الطوية؟ أنا سليمة الطوية تمامًا. ولكن الأمر الذي أفكر فيه بقوة مؤخرًا، هو الرغبة العارمة في التخلص من الانخداع في الناس. مقابل ألا أكذب على أحد وألا أخدع أحدًا، أنوي ألا يخدعني أحد .

. أتريدين القول إنك لن تثقي فيما يقوله سيدك كما هو؟

. أجل هو كذلك. فهذا الرجل يعتقد أنني طفلة صغيرة. ولكن لأنه شخص بارع جدًّا، فلا حيلة في أن يعتقد ذلك، ولكن أنا لست طفلة بالدرجة التي يعتقدها .

. إذن، ماذا؟ هل تقولين إنك اكتشفت كذبًا فيما قاله سيدك حتى الآن؟

. أجل يوجد. ألم تكرر العجوز القول مرات ومرات: «إن زوجة ذلك الرجل توفيت تاركة له أطفالهما يرعاهم. ولذا عندما تخدمينه إن لم تكوني زوجة شرعية له، فستكونين أقرب إلى زوجة شرعية. ولكن بسبب نظرة المجتمع لا يستطيع أن يظهر على الملأ ما كان يخفيه في السر»؟ ولكن هل تعلم يا أبتِ أن زوجته على قيد الحياة؟ بل هو الذي قال لي ذلك بمنتهى الهدوء. لقد ألجمتني المفاجأة .

اتسعت مقلتا العجوز :

. أحقًّا هذا؟ كان ذلك، كما هو متوقع، مجرد تزيين للكلام بالكذب من المرأة .

. ولذلك فهو يخفي أمري عنها ويجعله سرًّا من أعظم الأسرار. إذا كان بدرجة أن يكذب على زوجته فهو لن يقول لي الحقيقة على الدوام. يجب أن أحترس منه وأنتبه لكل ما يقول .

نسي العجوز حتى أن يضع عقب السيجارة التي يدخنها، وظل شاردًا يتأمل ابنته التي كبرت فجأة، فقالت ابنته وكأنها تذكرت أمرًا ما فجأة :

. اليوم سأكتفي بهذا وأعود الآن. إذا رأيتك مرة بهذا الشكل تذهب المعوقات كلها، ومن الآن سآتي لأراك يا أبتِ كل يوم تقريبًا. في الواقع لقد ظللت محرجة من المجيء حتى يقول لي سيدي: «اذهبي». وأخيرًا ليلة أمس استأذنت منه، وجئت هذا الصباح. الخادمة التي جاءت إلى بيتي ما زالت طفلة صغيرة، حتى إعداد طعام الغداء لا تقدر عليه ما لم أرجع أنا وأساعدها فيه .

. إذا كنت قد جئت بعد أن استأذنت من سيدك أليس من الأفضل أن تعودي بعد تناول الغداء معي؟

. لا، هذا أمر خطر. سأعود في القريب العاجل يا أبي. وداعًا .

في اللحظة التي وقفت فيها «أوتاما»، خرجت الخادمة مسرعة لتصلح لها الحذاء لتنتعله. حتى المرأة التي لا تبدو عليها أية كياسة لا تستطيع إلا أن تراقب وتفحص أي امرأة أخرى تلتقي بها ولو صدفة. يقول أحد الفلاسفة: إن المرأة تنظر إلى امرأة أخرى حتى لو قابلتها صدفة في الطريق وكأنها منافسة لها. حتى المرأة التي خرجت من منطقة ريفية جبلية لتوها

والتي تغمس إصبعها في صحن الحساء، أظهرت اهتمامًا بأمر «أوتاما» الجميلة، ويبدو أنها كانت تقف تتسمع لحديثها .

قال العجوز وهو جالس كما هو :

. حسنًا. من الأفضل أن تأتي ثانية. أبلغي تحياتي للسيد .

أخرجت «أوتاما» من بين لفات حزام الساتان اللامع الأسود حافظة النقود الورقية الصغيرة، ولوت منها عدة ورقات وأعطتها إلى الخادمة، ثم لبست قبقابها الخشبي ورحلت خارجة من الباب الحديدي .

اندهشت «أوتاما» من خروجها بحيوية ونشاط من الباب الذي دخلته وفي نيتها البكاء مع أبيها . سندها الوحيد . وهي تشتكي له ما تلقاه من تعاسة القلب وآلامه. فقد كانت تريد أن تُري والدها . الذي اطمأن أخيرًا بعد قلق، ولا ترغب في جعله يعاني معاناة لا جدوى منها . أنها قوية وسليمة، ولكن أثناء اجتهادها في عمل ذلك، وكأن شيئًا ما كان نائمًا داخلها استيقظ، وذاتها التي كانت حتى ذلك الحين تعتمد على الآخرين، أصبحت بدون وعي مستقلة بنفسها، ثم سارت «أوتاما» على حواف بركة «شينوبازو» بوجه بشوش مشرق .

مع أن الشمس التي انحرفت بعيدًا جدًّا عن تلة «أوينو» أضاءت فجأة وباتساع وصبغت مبنى معبد «بنتن» في «ناكاجيما»، إلا أن «أوتاما» كانت تسير بدون أن ترفع مظلة الوطواط الصغيرة التي أحضرتها معها .

الفصل الثاني عشر

في إحدى الليالي، حين عاد «سويزو» من «موئنزاكا» إلى بيته، وجد زوجته ساهرة بمفردها بعد أن غفا الطفلان. كانت في العادة، ما إن يخلدا إلى النوم، تستلقي بجوارهما لتنام، غير أنّها في تلك الليلة بقيت جالسةً تحدق إلى الأرض بصمتٍ ثقيل، وحين دلف «سويزو» إلى داخل الناموسية لم تلتفت نحوه، ولم تكلف نفسها حتى إلقاء نظرةٍ عليه.

كان فراش «سويزو» في عمق الناموسية، ملاصقًا للحائط وعلى مسافةٍ قصيرةٍ منها، وبجوار وسادته وثارٌ مفروشٌ، وأدوات إعداد الشاي وتدخين التبغ. جلس «سويزو» على الوثار، وأشعل لفافة تبغٍ وأخذ ينفث منها بدخانٍ هادئٍ وقال بصوتٍ حنون:

. ماذا بكِ؟ أما زلتِ يقظة ولم تنامي بعد؟

غير أنّ الزوجة آثرت الصمت، ولم تنبس بحرف.

لم يرَ «سويزو» جدوى في التودد أكثر من ذلك؛ فإن لم تستجب لمحاولة التصالح هذه، فذلك حدّ ما يمكنه أن يبديه من ليونة، فعمد إلى التدخين متظاهرًا باللامبالاة.

ثم، فجأة، رفعت الزوجة رأسها ونظرت إليه نظرةً حادة، وقالت:

.أين كنتَ حضرتك حتى هذا الوقت من الليل؟

منذ أن استقدم «سويزو» الخدمَ إلى المنزل، أخذ أسلوب حديث زوجته يتهذّب شيئًا فشيئًا، غير أنّها إذا وقفت في مواجهته مباشرةً، غلبها طبعها القديم فعادت خشنةً وقاسية، بالكاد تبقي على كلمة «حضرتك».

رمقها «سويزو» بنظرةٍ سريعةٍ صارمة، ثم لم ينبس ببنت شفة؛ إذ حتى لو كان يعلم أنّها علمت بشيءٍ ما، فهو لم يتبين بعدُ ما حجم ذلك الذي بلغها، ولا مداه، فلا يجرؤ على قول شيء. فـ«سويزو» ليس بالرجل الذي يُفشي كلّ ما يعرفه كيفما اتفق، فيُسلّم للطرف الآخر ما لديه من أسرارٍ بلا روية ولا حساب.

.انتهى الأمر، أنا أعرف كل شيء.

جاء صوتها حادًّا، تتخلله رعشة تشي بأنها على شفا البكاء.

فقال، وقد بدا عليه الذهول من مباغتتها له:

.لا تقولي كلامًا غريبًا. وما هذا الذي تعرفينه؟

كان صوته متعبًا، يحاول جاهدًا أن يلين في حديثه معها.

قالت بلهجة ممزوجة بالمرارة:

.أمر شنيع! ما أمكرك في التظاهر بالجهل!

ويبدو أن هدوء زوجها لم يطفئ غضبها بل زادها غيظًا، فانفجرت كلماتها كسهمٍ مبعثر، ومسحت دموعها المنهمرة بكمِّ ملابسها الداخلية، وقد تحولت ملامح وجهها إلى مسحة من الألم الشديد.

.يا لها من مصيبة! ألا تقول لي ما الأمر؟ فأنا حقًا لا أدري ما تقصدينه!

قالت بصوت مخنوق:

.أحقًّا لا تدري؟ أجبني، أين كنت الليلة؟ ما هذا الفعل الذي اقترفته؟ تقول لي لديك أشغال، ثم تذهب لتتخذ محظية!

انفلتت خصلة من شعرها من تسريحتها المفككة، فالتصقت بوجهها المتورد الذي بدت فيه حمرة الغضب ممزوجة بحمرة الدموع. حاولت أن تفتح عينيها الصغيرتين المبللتين، وتحدق في «سويزو» بنظرة جريحة، ثم زحفت على يديها وركبتيها حتى اقتربت منه، وقبضت بعنف على يده التي تمسك بسيجارة «تنجو» الذهبية المشتعلة.

فقال «سويزو»:

.كفى!

ثم أبعد يدها عنه، وأطفأ جمرات السجائر التي تبعثرت فوق حصير «التاتامي».

شهقت بالبكاء وهي تعاود الإمساك بيده من جديد:

. وأين في هذا العالم يوجد رجل مثلك؟! حتى لو كثُر المال، لا ترى إلا نفسك، تتأنق كالسيّد المحترم، ولا تفكر أن تخيط لزوجتك رداء «كيمونو» واحدًا، بينما أنت تغرق في غرورك وجنونك بالمحظيات!

.ألم أقل لكِ كفي عن هذا الكلام!

دفع يدها بعيدًا مرة أخرى، وقال بصوت خافت لكنه كان يختزن شيئًا من الصرامة:

.سيستيقظ الطفلان. وصوتك يصل إلى غرفة الخادمة.

وفي تلك اللحظة، تحرك الطفل الأصغر في نومه، وتمتم بكلمات غير مفهومة في حلمه، فخفضت الزوجة صوتها على الفور، كأنما انكسرت حدتها، وهمست:

.ماذا عساني أن أفعل؟

ثم أطلقت تنهيدة حزينة، ودست وجهها في صدر «سويزو» وهي تبكي بلا صوت.

فقال وهو يربت على كتفها:

. ليس عليكِ أن تفعلي شيئًا. هناك من خدعكِ مستغلًّا طيبة قلبك. من قال لكِ هذا الكلام عن المحظية؟

نظر إلى شعرها المبعثر، الذي أخذ يهتز بخفة وهو يهمس لها، وفكر في أمر عابر لا يخلو من السخرية: «لماذا تصر امرأة دميمة على قصة شعر تقليدية لا تناسبها؟». ومع اهتزاز شعرها المتباطئ، شعر بضغط ثدييها الممتلئين اللذين أرضعا كل طفل حتى الشبع، وقد استقرا على صدره كأنهما وسادة ماء دافئة. وظل يكرر بهدوء:

. من الذي قال لكِ ذلك؟

. ولماذا يهمك من الذي قال؟! إنها الحقيقة!

قالت ذلك وهي تشدد من ضغط صدرها عليه، كأنها تستند إليه وتتهمه في الوقت ذاته.

. لأنها ليست الحقيقة، لهذا أريد أن أعرف. قولي لي من قال؟

. لا بأس، سأقول. إنها زوجة بائع السمك.

. ماذا تقولين؟ لم أفهم. زوجة من؟

أبعدت وجهها قليلًا وضحكت ضحكة مشوبة بالغيظ والمرارة:

. أقول لك إنها زوجة بائع السمك!

. آه... تلك المرأة! نعم، كنت أظن أنها هي التي قالت ذلك.

نظر إليها بنظرة يملؤها مزيج من الشفقة والحنو، وأشعل بهدوء سيجارة «تنجو» الذهبية، بينما هي ما تزال حانقة، يلمع في عينيها أثر الدموع والندم.

«كثيرًا ما يطنطن الصحافيون في جرائدهم بحديثهم عمّا يُسمّى بتحكّمات المجتمع، لكنني . واللهِ . ما رأيتُ لتلك التحكّمات أثرًا في حياتي قط! لكنّ الظاهر أن تلك النمّامة الشمطاء هي المقصودة، فهي لا تترك شاردةً ولا واردةً من شؤون الجيران إلا دسّت أنفها فيها. أيُعقل يا امرأة أن تصدّقي هراء امرأة كهذه؟! سأقصّ عليكِ الحقيقة من فمي أنا، فاسمعي بإنصاف وانتباه.»

كانت الزوجة في تلك اللحظة كمن غمر رأسها ضبابٌ ثقيل؛ مذهولةً شاردةً، لكنّها شدّت على حاسة الشكّ في صدرها خوفًا من أن تُخدع. ومع ذلك، كانت تنظر إلى وجه «سويزو» بحرارةٍ ولهفة، تصغي لما يقول بتركيزٍ شديد. وكعادته، كان «سويزو» يُكثر من استعمال الكلمات الغريبة التي

يلتقطها من صفحات الجرائد، فتشعر الزوجة دون إرادةٍ منها بنقصٍ أمامه، وتسلّم بما يقوله رغم أنها لا تفهم معاني تلك الكلمات فهمًا تامًّا، كما حدث حين تحدّث عن «تحكّمات المجتمع» وسواها.

كان «سويزو» بين الحين والحين يرفع سيجارته إلى فمه، ينفث دخانها في الهواء، وينظر بثباتٍ إلى عيني زوجته، كأنه يرسل إشارات خفيّةً وهو يقول:

«أما عن الأمر الذي تعرفينه أنتِ أيضًا... أتذكرين ذلك الشابّ الذي كان يُدعى يوشيدا؟ ذلك الذي كان يتردّد كثيرًا على بيتنا في أيام الجامعة، صاحب النظارة ذات الإطار الذهبي، الذي كان يرتدي دومًا زيًّا تقليديًّا خفيفًا... ذلك الرجل يعمل الآن في مستشفى بمنطقة تشيبا. ولقد حاولتُ أن أستردّ منه دَيْنًا قديمًا طوال عامين أو ثلاثة، ولكن دون طائل. وهناك امرأة كانت تعرفه منذ أن كان يسكن في مهجع الطلبة، وكانت تستأجر إلى عهدٍ قريب بيتًا صغيرًا في حيّ ناناماجاري. في البداية، كان يرسل إليها بانتظام بعض المال كل شهر، لكنه منذ مطلع هذا العام توقّف عن إرسال المال والرسائل معًا. فجاءتني المرأة ترجوني أن أتوسّط بينها وبينه.»

توقّف قليلًا، ثم أكمل:

«ربما تتساءلين كيف عرفتني تلك المرأة... الحقيقة أن السيد يوشيدا، خوفًا من أن يراه أحد وهو يدخل محلي، دعاني يومًا إلى ذلك البيت نفسه في ناناماجاري ليتحدّث معي عن تعديل تواريخ بعض الصكوك وأسماء أصحابها. ومنذ ذلك الوقت عرفَتني المرأة. بالطبع كان طلبها ثقيلًا عليّ، لكنني قبلتُ التوسّط بينهما، لأغتنم الفرصة في استرداد مالي أيضًا. غير أن الأمر كان معقّدًا ولم يُحلّ بسهولة. كانت المرأة تلحّ عليّ، وكنت أتعامل معها وكأنني تورّطتُ مع إنسانة فقدت عقلها. لكنّ ما فاق الحدود أنّها طلبت مني مساعدتها في الانتقال إلى بيتٍ أصغر وأرخص ثمنًا، فساعدتها بالفعل لتسكن في بيتٍ كان في الأصل محلًّا للرهونات عند منحدر كيريتوشي. ومن حينٍ لآخر، وحتّى وقت قريب، كنت أمرّ على بيتها، وأحيانًا أدخّن سيجارة أو اثنتين... فبدأ الجيران يُشيعون الأقاويل. والبيت الملاصق بيتُ معلمة خياطةٍ تجمع حولها بعض الفتيات لتعليمهن، وهي امرأة لا تُبقي في فمها كلمة إلا أخرجتها... فهل يُعقل أن يكون رجلٌ عاقلٌ مثلي يجعل بيت عشيقته في حيٍّ تملؤه الألسن؟!»

قالها «سويزو» وضحك ضحكةً ساخرةً ملؤها الاحتقار.

لمعت عينا الزوجة الضيقتان وهي تُصغي بانتباهٍ أشدّ، ثم قالت في دلالٍ خفيف:

«ربما الأمر كما تقول... لكن، مع كثرة تردّدك على بيت امرأةٍ كهذه، من يدري ما قد يحدث؟ خصوصًا وهي . فيما يبدو . امرأةٌ يسيل قلبها بالنقود.»

ونسيت في تلك اللحظة أن تقول له «حضرتك».

فقال لها بنبرةٍ شابها شيءٌ من الضيق:

«لا تظنّي بي الظنون يا امرأة! أأنا رجلٌ يمدّ يده إلى امرأةٍ أخرى وهو عنده زوجةٌ مثلك؟ حتى الآن، هل فعلتها مرّة واحدة في حياتي مهما كانت المرأة؟ كفى عن هذا! لم نَعُد في عمرٍ نضيّع فيه الليل شجارًا بسبب الغيرة.»

وشعر «سويزو» في أعماقه بنشوة النصر؛ فقد ظنّ أنه أفحمها ودافع عن نفسه بنجاحٍ يفوق ما توقّع.

فقالت الزوجة في رقةٍ متردّدة:

«لكنّ الرجال أمثالك... النساء يرين فيهم جمالًا خاصًا، وهذا ما يخيفني.»

فضحك ضحكةً صغيرةً وقال:

«حقًّا! أنتِ لا تؤمنين إلا بما يختلج في قلبك أنتِ.»

فسألته في خفوت:

«وماذا تعني؟»

فقال في لهجةٍ حاسمة:

«أنا رجلٌ لا تحبّه من النساء إلا أنتِ. كفى حديثًا... لقد تجاوز الليل منتصفه... دعينا ننام... دعينا ننام...»

الفصل الثالث عشر

حتى لو نجحت حجج «سويزو» . تلك الحجج التي خلط فيها الحقائق بالأباطيل . في أن تخمد نار الغيرة في قلب زوجته لبعض الوقت، فإن أثرها لم يكن إلا أثرًا عابرًا لا يلبث أن يزول. فما دام «الشيء» القابع في «موئنزاكا» ما زال على حاله، فلن تهدأ الألسنة عن النميمة، ولن تنقطع الشكاوى، فتتناقل الخادمة كلامًا كقولها: «اليوم فلان رآه وهو يدخل من الباب الحديدي»، ويبلغ الكلام إلى مسامع الزوجة. غير أنّ «سويزو» لم تعجزه الحجج يومًا؛ فإن قيل له: «وهل لابد أن تجري الأحاديث التجارية في المساء؟»، ردّ قائلاً: «ومن ذا الذي يناقش اقتراض المال في الصباح الباكر؟». وإن قيل له: «ولِمَ لم يكن الأمر كذلك فيما مضى؟»، أجاب: «ذاك كان قبل أن تتوسع أعمالي».

فـ«سويزو»، قبل انتقاله للإقامة في حي «حافة البركة»، كان يقوم بكل صغيرة وكبيرة بجهده وحده، غير أنّه بعد ذلك أنشأ إلى جوار منزله مكانًا أشبه بالمكتب، وأقام كذلك مكتبًا خارجيًا في بيتٍ بحي «ريوسنجي ماتشي»، حتى لا يضطر الطلبة إلى الذهاب بعيدًا للاقتراض. فمن يحتاج

إلى المال في حي «نيزو» يقصده في محله الرئيسي، ومن يحتاجه في «يوشيهارا» يجد بغيته في المحل الفرعي. ثم جرى اتفاقٌ متبادل بين محل «سويزو» ومحلٍ يُدعى «نيشينوميا» للهو والغناء، فصار من لا يملك مالًا يستطيع أن يلهو هناك بالدَّين، وكأنّما تشكلت بذلك كتيبة إمداد وتمويل لهواة العبث واللهو.

ومع كل هذا، لم يبلغ الخلاف بين الزوجين حدّ القطيعة الكاملة، ولا وصلا إلى مرحلةٍ جديدةٍ من العداء، بل ظلّ الوضع على حاله شهرًا تقريبًا، حيث إن دفاع «سويزو» الواهي وغير المتماسك استطاع أن يحافظ على الهدوء مؤقتًا. لكن في يومٍ ما، جاء الانفجار من حيث لم يكن بالحسبان.

ففي صباحٍ لطيفٍ من تلك الأيام، قالت «أوتسونه» لزوجها إنها ستغتنم فرصة وجوده في البيت لتخرج فتقضي بعض المشتريات، ومضت إلى «هيروكوجي» يصحبها الخادمة. وفي طريق العودة، وحين أوشكتا على عبور شارع «ناكاميتشي»، جذبت الخادمة كمّ رداء سيدتها بخفةٍ من الخلف. فاستدارت إليها «أوتسونه» بنبرة توبيخ:

. ما بكِ؟

ثم رفعت بصرها تنظر إلى وجه الخادمة التي أشارت في صمت إلى سيدةٍ واقفةٍ أمام محلٍ على الجهة اليسرى من الطريق. فالتفتت «أوتسونه»

كارهةً، وساقت عينيها نحو تلك السيدة، وما إن وقع نظرها عليها حتى توقفت قدماها من غير وعي. وفي اللحظة نفسها، التفتت تلك المرأة إليهما، وتلاقت النظرات بين «أوتسونه» وبينها.

في بادئ الأمر، حسبت «أوتسونه» أنّ تلك المرأة فتاة من فتيات «الجيشا»، بيد أنّه لو صحّ ظنّها، ففي حيّ «سُكياماتشي» فتيات أجمل منها يملأن الأزقة والدروب، هكذا قدّرت «أوتسونه» في تلك اللحظات الوجيزة التي سنحت لها بالتأمل. لكنها تنبّهت بعد برهةٍ إلى أنّ تلك المرأة تفتقر إلى ما يميّز عادةً فتيات «الجيشا». لم تستطع «أوتسونه» أن تصف تمامًا ذلك الشيء الغائب، غير أنّه لو شاءت التوضيح، لقالت إنه يكمن في المبالغة في السلوك والحركات. إذ إنّ «الجيشا» ترتدي «الكيمونو» في أبهى صورة، وهذا التكلّف في إبراز الجمال، والمبالغة التي لا تخلو منها، تُفقدها بالضرورة مسحة التواضع والعفوية. وكان غياب تلك المبالغة هو ما لمحته «أوتسونه» بوضوح لدى تلك المرأة.

وفي اللحظة نفسها، شعرت المرأة الواقفَة أمام المتجر دون وعي بأنّ أحد المارّة بجانبها قد توقّف عن المسير. فالتفتت ببطء خلفها، لكنّها لم تجد في ذلك العابر ما يستدعي حذرًا أو ريبة. فأمالت مظلّة الوطواط قليلًا نحو الداخل، قرّبتها من ركبتيها، ثم تناولت كيس نقود صغيرًا من حزام «الكيمونو»، وأدخلت عنقها في فتحته تبحث عن قطعة نقدٍ فضيّة.

كان المتجر هو «تاشيجارايا» الواقع في الجهة الجنوبية من شارع «ناكاميتشي»؛ اسمٌ قلّما يُرى بين المحالّ. وقد قال أحدهم ساخرًا:

ـ لو قرأنا «تاشيجارايا» بالمقلوب لأصبحت «ياراجاشيتا» أي «دعه يعمل»!

هذا المتجر العجيب كان يبيع مسحوق تنظيف الأسنان في أكياس ورقيّة حمراء، تُطبع عليها حروف مذهّبة. وفي ذلك الزمان، الذي لم يكن معجون الأسنان المستورد قد شاع بعد، كانت البضائع الأقلّ شأنًا تنحصر في اثنين: مسحوق «كاوسان» المعطّر بعبق زهرة «الفاوانيا» الذي يُباع في محلات «كيشيدا»، ومنظّف أسنان «تاشيجارايا».

ولم تكن تلك المرأة الواقفة أمام المتجر سوى «أوتاما» نفسها، التي عرّجت في طريق عودتها من زيارة بيت والدها صباحًا لتشتري منظف الأسنان.

وبعد أن خطت «أوتسونه» أربع أو خمس خطوات، همست لها الخادمة:

ـ سيدتي... إنها هي تلك المرأة... امرأة «موئنزاكا».

لكن تلك الكلمات لم تحدث أثرًا في نفس «أوتسونه»، التي أومأت صامتة، ما جعل الخادمة تشعر بالدهشة. فقد أدركت «أوتسونه» في

اللحظة نفسها التي استبعدت فيها أن تكون المرأة فتاة «جيشا»، أنها في الأغلب امرأة «موئنزاكا». وما عزّز يقينها بذلك أنّ الخادمة لم تكن لتشدّ كمّ ردائها لتُريها إياها إلا لسببٍ أكبر من مجرّد كونها امرأة جميلة. غير أنّ ثمّة أمرًا آخر، غير متوقع، كان له وقعٌ بالغ الأثر: مظلّة الوطواط التي كانت «أوتاما» تضعها إلى جانب ركبتها.

كان ذلك منذ شهر تقريبًا. إذ عاد زوج «أوتسونه» ذات يوم من «يوكوهاما» ومعه مظلّة شمسية من طراز الوطواط، قدّمها هديةً لزوجته. كانت مظلّة طويلة على نحوٍ مبالغ فيه، وجزؤها المظلّل صغيرًا لا يتناسب مع طولها الفارع. ولعلّها كانت تبدو ملائمة في يد امرأة غربيّة طويلة القامة تجعل منها أشبه بلعبة، أمّا في يد «أوتسونه» القصيرة الممتلئة ـ لو بالغنا في الوصف ـ فقد بدت وكأنّها تمسك عمودًا طويلًا لنشر الغسيل تتدلّى منه لفافة طفل. ولهذا السبب وضعتها في الخزانة دون أن تستعملها قطّ. وكانت المظلّة مرسومًا عليها مربّعات بلون أزرق داكن على أرضيّة بيضاء. وحين أبصرتها «أوتسونه» في يد تلك المرأة أمام المتجر، عرفت تمامًا أنّها المظلّة ذاتها.

وعندما وصلتا عند منعطف البركة قرب دكان بيع «الساكي»، قالت الخادمة محاولةً التخفيف عن سيّدتها:

ـ سيدتي... ألَا ترين أنّها ليست بتلك الجمال الباهر؟ وجهها مسطّح، وقامتها طويلة على نحوٍ مزعج.

فأجابتها الزوجة بحدّة:

ـ لا يليق بكِ التفوّه بمثل هذا الكلام!

ثمّ تابعت السير دون أن تلتفت، فيما لحقت بها الخادمة بوجهٍ يملؤه الضيق وقد خاب مسعاها.

تغلي مشاعر «أوتسونه» في صدرها كما يغلي الماء في قدر، فلم تعد ترى الأشياء واضحة ولا تستطيع أن تفكر في أمرٍ بعينه بصفاء. لم يكن لديها خطة لما ستفعله مع زوجها أو بماذا ستواجهه، لكنها مع ذلك كانت تشعر بيقينٍ داخلي أن عليها أن تصطدم به عاجلًا وأن تبوح بما يعتمل في صدرها. ثم عادت بذاكرتها إلى الوراء، وفكرت: «كم كانت سعادتي طافحةً في تلك اللحظة التي عاد فيها من سفره وقدّم لي مظلة الوطواط تلك! فما سبق له قط أن اشترى لي شيئًا من تلقاء نفسه، من دون أن أطلبه صراحة. يومها انتابتني دهشة عميقة، وتساءلت في حيرة: تُرى ما الذي دفعه هذه المرة تحديدًا لأن يبتاع لي هدية؟ وكيف رقّ قلبه فجأة ليكون لطيفًا معي على غير عادته؟ لو أعدت التفكير مليًّا، فلا شك أن تلك المرأة هي من رغبت في تلك المظلة أولًا، وأثناء شرائه لها تذكّر أن يشتري لي واحدة أيضًا على سبيل

المجاملة. هذا هو التفسير الأوضح ولا ريب. ويا لغبائي! فقد كنت ممتنة له حتى الأعماق من دون أن أعرف أنني كنت ممتنة لأجل شيء لم يُشترَ لي أصلًا من قلبه. بل وشعرت بالعرفان العميق من أجل مظلة لن أستخدمها أبدًا ولن تكون لي فيها منفعة! وربما لا يقتصر الأمر على تلك المظلة فحسب؛ فقد تكون ملابسها من «الكيمونو» ودبابيس شعرها وكل ما تتزين به هي أيضًا من جيبه. وما أرتديه أنا لا يشبه ما ترتديه هي مطلقًا؛ تمامًا كما تختلف مظلتي المكسوة بالستان، عن تلك المظلة الأجنبية الغالية التي اقتناها لها.

وليس ذلك شأني وحدي، بل حتى حين أرغب في أن يرتدي الأطفال زيّ «كيمونو» جميلًا، يصدّني ويقول باستخفاف إن الولد تكفيه قطعة واحدة، أما البنت فحياكة زيٍّ لها خسارة لأنها ستكبر سريعًا ولن يصلح لها الزي بعدها. هل يُعقل أن يعيش رجل يملك عشرات الآلاف من النقود هكذا، بينما زوجته وأطفاله يبدون بهذا المظهر البائس؟ حين أسترجع ما حدث، أجد أن وجود تلك المرأة في حياته هو السبب الذي جعله يُعرض عنّا ولا يهتم بنا. بل لا يمكنني أن أتيقن من صدق زعمه بأنها امرأة «يوشيدا» أصلًا؛ فلعلها تحت رعايته منذ كانت تسكن في حي «ناناماجاري». بل لا شك في ذلك. فمنذ تضخّم ماله وصار ينفق ببذخ على ملبسه وأشيائه، كان يعلل ذلك بحاجة العمل والتعامل مع الشركاء، لكنه في

الحقيقة كان يُسرف لأجل تلك المرأة. ولم يفكر قط أن يأخذني معه إلى أي مكان، بل من المؤكد أنه كان يأخذها هي معه. آهٍ... يا للحسرة!».

وإذ هي غارقة في خواطرها تلك، نادتها الخادمة فجأة بصوت مرتجف:

.سيدتي! إلى أين تذهبين؟

فانتبهت «أوتسونه» من شرودها، وتوقفت في موضعها متفاجئة، إذ كانت قد انهمكت في السير وهي مطأطئة رأسها حتى كادت تتجاوز زاوية الشارع التي يقع عندها بيتها.

عندها أطلقت الخادمة ضحكةً جريئة بلا تحرج، وكأنها وجدت في المشهد ما يبعث على السخرية والدهشة.

الفصل الرابع عشر

كان «سويزو» يقرأ الجريدة وهو يدخن التبغ حين خرجت «أوتسونه» للتبضع بعد أن رتبت مائدة الإفطار. لكن حين عادت، لم يكن موجودًا في البيت، فقد رحل بالفعل. لم تكن تعرف ماذا كانت ستقول له لو بقي، وأحسّت بخيبة أمل عميقة لغيابه، إذ عادت وهي تشتعل برغبة قوية في الاشتباك معه والتصادم، وأن تنطق بأي كلمة تعبر عن ألمها أو غضبها.

كان عليها الآن أن تهيئ وجبة الغداء، وكذلك أن تواصل حياكة «الكيمونو» المبطن الذي سيكون ضروريًا للطفلين بعد فترة قصيرة، وكانت قد بدأت فيهما وتركت العمل فيهما دون إتمام. تدريجيًا خفت حرارة رغبتها في الاشتباك مع زوجها، أثناء تحركها كآلة تقوم بأعمالها المعتادة بآلية باردة.

لقد سبق لها، وما تزال، أن اصطدمت مع زوجها في نوبات غضب عارمة، كانت تنوي فيها مواجهة الجدران الصلبة برأسها بكل قوة. لكنها كانت تندهش كل مرة كيف يتحول ذلك الجدار الصلب الذي يفترض أن يقاوم ضرباتها إلى ستارة ناعمة من القماش تمتص ضرباتها وتتنقل بين أذرع

تحميها. وعندما تسمع صوت زوجها يتحدث بنعومة ولسان منطق، لا تستسلم دائمًا للحجج، لكنها تفقد اندفاعها شيئًا فشيئًا دون أن تدري كيف.

اليوم، لم تعد تؤمن بأنها قادرة على شن الهجمة الأولى بقوة كما في السابق.

تناولت «أوتسونه» الغداء مع طفليها، وكانت كالعادة القاضي الذي يفصل في خصوماتهما ويحكم بينهما، بينما تخيط بطانة «الكيمونو» بصبر. ثم أعدت طعام العشاء، وحرصت على أن يستخدم الطفلان الطست للاستحمام، ثم استعملته هي أيضًا. بعد ذلك تناولت العشاء وهي تشعل بخور طرد البعوض، ثم خرج الطفلان ليلعبا بالخارج بعد أن أرهقتهما الألعاب.

جاءت الخادمة من المطبخ، فباشرت كما اعتادت ترتيب الفراش في مكانه، وتعليق الناموسية، وأخذ الطفلين إلى المرحاض، ثم أركبتهما إلى النوم.

وضعت «أوتسونه» الشبكة الواقية من الذباب على وجبة عشاء زوجها، ووضعت غلاية الماء المعدنية على مجمرة الحطب، ثم نقلتهما إلى

الغرفة المجاورة. هذا ما كانت تفعله دومًا حين لا يعود زوجها في وقت العشاء.

كانت تفعل كل ذلك كآلة بلا روح أو عقل.

أمسكت مروحة يدوية ودخلت تحت الناموسية، تتخيل زوجها الآن وهو متجه إلى منزل تلك المرأة، وكأن المشهد يتجلّى أمام عينيها بوضوح غامض. شعرت بعدم القدرة على البقاء ساكنة، والجسد يهتز بين القلق والاضطراب.

بينما كانت تفكر بقلق: «ما العمل؟ ما العمل؟» دبّت فيها رغبة جامحة في التجوال حتى منزل «موئنزاكا» لاستطلاع الأمر عن قرب.

كانت قد ذهبت مرة إلى محل «فوجيمورا» لشراء كعكة الأرز الريفية المفضلة لطفليها من بين الحلوى، معتقدة أن البيت المجاور لمنزل معلمة الحياكة هو ذلك البيت، فنظرت إليه وهي تمر أمامه، فترسخت في ذهنها صورة بابه الحديدي وأسيجته.

فجأة، اجتاحها شوق لرؤيته، حتى ولو للحظة، لترى هل تلمع أضواء النار من داخله، أو تسمع همسات خافتة. كانت ترغب فقط في أن تشاهد ذلك ثم تعود.

لكنها سرعان ما تراجعت، فذلك يتطلب المرور عبر الطرقة المجاورة لغرفة الخادمة، وإلا فلن تستطيع الخروج.

والباب إلى تلك الطرقة، في الآونة الأخيرة، كان مزالًا، ومن المفترض أن «ماتسو» الخادمة ما تزال مستيقظة تقوم بأعمال الحياكة.

لو سألتها «أوتسونه» إلى أين تذهب في هذا الوقت، فلن تجد جوابًا مقنعًا. ولو قالت: «ذهبت لشراء شيء»، فمن المؤكد أن «ماتسو» ستقول: «سأذهب أنا».

ومهما علت رغبتها في الانطلاق، فإنها كانت تعرف أنها لا تستطيع الخروج خفية.

آه، ما العمل إذن؟

عندما عادت إلى البيت ذلك الصباح، كانت تتمنى لقاء ذلك الرجل بأسرع ما يمكن:

«لو قابلته آنذاك، ماذا كنت سأقول له؟ لو التقينا، أعرف نفسي جيدًا، بالتأكيد كنت سأقول أشياء لا معنى لها ولا نهاية. وكان هو، كما هو دائمًا، سيرد بكلمات حلوة مناسبة، وربما يخدعني مرة أخرى.

فهو رجل يمتاز باللباقة وسلاسة اللسان، مهما تعاركنا لن أطيقه.

هل أصمت إذًا؟ لكن، ماذا ينفع الصمت؟ فلو كانت امرأة مثل تلك المرأة معه، فمن المؤكد أنه لن يلتفت إلى امرأة مثلي مهما حدث.

ما العمل؟ ما العمل؟»

مع تكرارها لهذا النسج من الأفكار، تعود «أوتسونه» مرارًا إلى نقطة انطلاقها البدائية، فتتراجع أفكارها إلى الوراء، وينسل ذهنها بعيدًا في متاهات الشرود، فتغدو عاجزة عن فهم ما يدور حولها. ومع ذلك، فإن الاصطدام العنيف مع الزوج لا يُجدي نفعًا، فقررت أن تكتفي بالابتعاد عنه فقط، دون مزيد من المواجهة.

حينها دخل «سويزو» إلى الغرفة عائدًا، فتعمدت «أوتسونه» أن تعبث بصمتٍ في رسومات المروحة التي تمسكها بين يديها.

قال هو مستفسرًا:

. ما هذا؟ ما بال أحوالك مرة أخرى غريبة؟ ماذا حدث؟

ورغم أن الزوجة لم تستقبل عودته بكلمة التحية المعتادة «مرحبًا بعودتك»، إلّا أن «سويزو» لم يُبدِ أيّ غضب تجاهها، ذلك لأن مزاجه كان حسنًا.

التزمت «أوتسونه» الصمت، وحاولت تجنب الصدام، ولكن عندما رأت زوجها يعود على تلك الحال، ارتفع في نفسها شعورٌ بالحسرة، فلم تستطع أن تظل ساكنة بلا مقاومة.

قال لها صارمًا:

. يبدو أنك تغوصين في أفكارٍ سخيفة مرة أخرى. توقفي! توقفي!

ثم وضع يده على كتفها، وهزّها برفق مرتين أو ثلاثًا، ثم جلس على سريره.

قال وهو يفكر:

. أنا أفكر فيما يجب علي فعله. فحتى لو قررت ترك البيت، فلا مكان لي أعود إليه، وإلى جانب ذلك لدينا طفلان.

ردّت عليه متسائلة:

. ما هذا الكلام؟ تفكر فيما يجب عليك فعله؟ أليس من الأفضل ألا تفعل شيئًا؟ فكل شيء على ما يرام، ونحن نعيش في سلام ووئام.

قال لها بهدوء:

. تستطيع أن تقول إن الأمور على ما يرام، لأنك لا تكترثين لما يحدث لي.

ابتسم بسخرية مريرة:

. عجيب هذا القول! هل حدث لي شيء؟ لن يصل الأمر إلى مكروه. بقائي كما أنا هو الأفضل.

ردّ عليها ساخرًا:

. نعم، نعم، استمرّي في السخرية مني. لأن وجودي أو غيابي لا يعني لك فرقًا، فمن المؤكد أنك لا تعتبرينني نَدًّا لك. الأمر كذلك، ليس فقط أن وجودي وعدمي سواء، بل إن الأفضل لك أن لا أكون موجودًا. أليس كذلك؟

قالها بغضب:

. ما هذه اللفّة في الكلام يا امرأة؟ ألا تعلمين أن غيابي يرهقني ويزعجني؟ حتى إن اكتفيت فقط برعاية طفلينا، فذلك دور عظيم.

قالت ببرود:

. الطفلان سترعاهما المرأة الجميلة التي ستحل محلي، فيصبحان ابنيها بالتبني.

قال متحيرًا:

. لا أفهم! من المفترض ألا يكون هناك حاجة للتبني، فوالدا الطفلين كلاهما بقربيهما.

قالت بتهكم:

. نعم، هذا ما يفترض، لكنه حقيقة تدعو للسخرية. حسنًا، إلى متى تنوي الاستمرار على هذا الحال؟

ردّ عليها بتحدٍ:

. وما أدري!

ضحكت ساخرَة:

. حقًا! هل تجعل المرأة الجميلة والمرأة ذات الوجه المنتفخ تستخدمان مظلة الوطواط نفسها؟

قال مستنكرًا:

. أوه، ما هذا الكلام؟ أراك تقولين عبارات تشبه مشاهد عروض المسرح الهزلي!

أجابت مازحة:

. أجل، فعلى كل حال، لا تستطيع امرأة مثلي أن تذهب وتشاهد مسرح «النوه» الجاد.

. ما أريده منك أن يكون أسلوب كلامك أكثر جدية، وإن كان أقل مما يُرى في مسرح «النوه». أما عن مظلة الوطواط، فما المقصود بها تحديدًا؟

. أنت تعلمين.

. ومن يعلم؟ أنا لا أعلم شيئًا على الإطلاق!

. إن كان الأمر كذلك، فسأخبرك. ألم تشتري لي مظلة الوطواط عندما عدت من «يوكوهاما» في يومٍ من الأيام؟

. وما العلاقة بذلك؟

. لم تشتريها لي وحدي فقط، أليس كذلك؟

. لم أشترها لك وحدك؟ لمن إذن كانت؟

. لا، ليس الأمر كذلك، وأنت تعلم. لقد اشتريتها لامرأة «موئنزاكا»، وبالمناسبة اشتريت لي واحدة أيضًا.

بعد حديث «أوتسونه» مطولًا عن مظلة الوطواط، اشتدت غصتها وحنقها حينما أوردت تلك التفاصيل بصراحة ووضوح. بدا على وجه «سويزو» الارتباك والدهشة، ولم يجد ما يرد به.

.كلام فارغ لا أصل له. ما هذا الكلام؟ هل تقولين إن امرأة «يوشيدا» تملك مظلة شبيهة بتلك التي اشتريتها لك؟

ارتفعت نبرة صوتها أكثر حدة:

.بالتأكيد تمتلك واحدة مثلها، لأنك أنت من اشترى لها واحدة.

.ما هذا الكلام؟ إنه يثير الغضب، توقف عند حدك. نعم، في البداية قيل لي إنها مجرد عينة للبضاعة، أما الآن فهي منتشرة بكثرة في أسواق «جينزا» وغيرها. أنا بريء من ذلك تمامًا كما في المسرحيات الدرامية. ثم ماذا؟ هل تقولين إنك قابلتِ امرأة «يوشيدا»؟ أين؟ وكيف عرفتها؟

قالت بغضب:

.نعم، عرفتها. لا أحد في الحي لا يعرفها، لأنها جميلة جدًا.

حتى تلك اللحظة، كان «سويزو» يتظاهر بالجهل، وكانت «أوتسونه» تصدق ذلك، لكن هذه المرة، حدسها القوي الذي يكاد يصرخ، وشعورها بأنها رأت الأمر بعينيها، منعاها من تصديق أقواله أو حتى الاعتقاد بأنها قد تكون صحيحة.

وأثناء تفكير «سويزو» في أمور كثيرة: «لماذا قابلتها؟ هل تحدثتِ معها؟» قرر ألا يسألها حتى لا يزيد الأمر سوءًا.

. هل تقولين إنها جميلة؟ تلك المرأة ذات الوجه المسطح الغريب التي يصفونها بالجميلة؟

صمتت «أوتسونه»، لكن كلام زوجها الذي أشار إلى عيب في وجه المرأة التي تحقد عليها خفف من شدة مشاعرها قليلًا.

وفي تلك الليلة، تصالح الزوجان بعد خلاف حاد وتبادل للأقوال والأعذار، إلا أن شوكة الغيرة ما تزال غارزة في قلب «أوتسونه» لم تستطع انتزاعها منه بالكامل.

الفصل الخامس عشر

غدا جو بيت «سويزو» غارقًا في كآبة عميقة، يتسلل إليه الحزن رويدًا رويدًا. كانت «أوتسونه» تتوه في اللاوعي، تحلق بنظراتها في فراغ لا يُدرك، فلا تعنى بشيء ولا ترعى طفلَيها، وإذا ما طلبا شيئًا، سرعان ما تنهال عليهما بنوبات من التوبيخ القاسي. وبعد انفضاض تلك النوبات، تفيق من سباتها، تعتذر لهما ثم تبكي في عزلتها، وحيدة في خضم عواطفها المضطربة. حتى لو سألتها الخادمة عن وجبة الطعام، تردّ أحيانًا صامتة، وأحيانًا أخرى بكلمات باردة:

– افعلي ما يحلو لكِ.

أما «سويزو» فكان، رغم العزل، يصرّ على نظافة الطفلين، ويحرص على أن يبدوا أنيقين ومهندمين، لا سيما في وجه الملامة التي كان يتلقاها من زملاء طفليه في المدرسة، الذين كانوا يجنّبونهم التواصل لاعتبارهم أبناء المرابي. لكن الواقع كان مغايرًا، إذ صار رأس الطفلين يغصّ بالقذارة، وبدأا يخرجان للعب بملابس رثة مهلهلة. وكانت الخادمة الصغيرة تعاتب الأم

قائلة: «يا سيدتي، هذا الوضع لا يصح!» لكنها كانت كحصان يُهزم تحت وطأة كسله، ينهش الأعشاب ويهمل كل شيء. صار البيت في حالة فوضى، الأسماك تفسد في المطبخ، والخضروات تجفّ وتذبل في الخزانة.

«سويزو» الذي كان يعشق النظام والترتيب، لم يكن يحتمل هذا الإهمال، لكنه فهم أن السبب يكمن في مرض زوجته. لذا، حمل نفسه المسؤولية ولم يجرؤ على أن يشكو، وحتى عندما أدلى بشكوى، كانت على شكل مزاح خفيف، يحاول به أن يلطّف الموقف. لكنه لم يكن يعلم أن ساخرته تلك تزيد الأمر سوءًا، وتعمّق من غيوم كآبة زوجته.

وبينما كان يراقبها في صمت، لاحظ أمرًا غريبًا، هو أن تصرفات «أوتسونه» تتدهور بشدة عندما يكون هو في البيت، بينما تتحسن وتتفاعل عندما يغيب. اندهش في بادئ الأمر، ثم شرع في إعادة التفكير بهدوء:

«هذا يعني أن المرض الذي ألمّ بزوجتي يزداد حين ترى وجهي. إنني أفعل أشياءً تثير غضبها وحنقها. رغم محاولاتي إقناعها بأنني هادئ، وبأنني لا أتجاهلها، إلا أن وجودي في البيت يجعل مزاجها يزداد سوءًا، كأنني أقدم لها دواءً سامًا يزيد مرضها تفاقمًا. لا يوجد ما هو أكثر كآبة من هذا».

فقرر أن يغيّر من أسلوبه، فبدأ يخرج من البيت مبكرًا ويعود متأخرًا، ظنًا منه أن الغياب يريحها. إلا أن النتيجة كانت عكس المتوقع، إذ حين يخرج مبكرًا، تصمت ولا تعترض، لكنها حين يعود متأخرًا، يتبدّل وجهها من البرود إلى الانفجار. تفقد صبرها وتنطلق نوبات بكاء مع صراخ:

– أين كنت حتى هذا الوقت المتأخر؟

ومنذ ذلك اليوم، أصبحت تلاحقه عند كل خروج مبكر قائلة:

– أنت، إلى أين أنت ذاهب الآن؟

وتحاول منعه بقوة. وإذا أخبرها عن وجهته، تكذّبه، وإذا حاول الخروج عنوة، تمسك به قائلة:

– هناك أمر أريد أن أخبرك به بشدة، فانتظر قليلاً.

كانت «أوتسونه» تمسك ملابس زوجها بإحكام، ولا تفارقه، أو تقف أمام الباب لتسدّ طريقه، غير مباليةً برؤية الخادمة ما تفعل. تحاول بشتى الطرق أن تمنعه من الخروج. ورغم أن أسلوب «سويزو» في التعامل مع الأمور التي لا تعجبه يقوم على المزاح الهادئ بعيدًا عن التوتر والاضطراب، إلا أنه في مرات عدة دفع زوجته، التي كانت متشبثة بملابسه، إلى الوراء بقوة، مما جعلها تسقط أرضًا. وكانت الخادمة تشاهد ذلك المشهد

المخجل، وحينها يتحلى «سويزو» بالتعقل، فيبقى في البيت معها، ثم يقول لها:

.لنستمع لما ترغبين في قوله.

فتبدأ «أوتسونه» في طرح مشكلات معقدة وعويصة، لا يمكن حلها بين ليلة وضحاها، كأن تقول: «ما الذي ستفعله بي؟» أو: «بما أنك تفعل هذا، ماذا سيؤول إليه أمري في المستقبل؟» وغيرها من الأسئلة التي تملأ قلبها بالقلق.

لم تثمر كل محاولات «سويزو» لعلاج مرض زوجته عبر معالجة الأعراض، كالخروج مبكرًا والعودة متأخرًا، بأية نتيجة تُذكر.

وعاد «سويزو» يفكر بعمق: «مزاج زوجتي يزداد سوءًا عندما أكون في البيت، وإذا حاولت الابتعاد، تمنعني بالقوة وتحاول إبقائي». فإذا تأملنا الأمر، نجد أنها هي التي تطلب بقائه، وهي ذاتها التي تعكر صفو مزاجها.

ثم خطرت في باله ذكرى: «عندما كانت كلية الطب لا تزال في منطقة «إيزومي باشي»، كان هناك طالب يدعى «إيكاي» مقترضًا أموالًا. كان مظهره يوحي بعدم اكتراثه، يرتدي قبقابًا على قدمه العارية، ويسير وكتفه الأيسر مرفوعًا قليلاً. وعلى الرغم من أنه كان يهرب مني رافضًا سداد ديونه أو تجديد صكوك الأمانة، صادفته ذات يوم صدفة في زاوية بحارة «أوئيشي

يوكوتشو». سألته: إلى أين تذهب؟ فأجاب: «سأتوجه إلى محل معلم رياضات الدفاع عن النفس والجودو في الجوار، سأدفع المبلغ المستحق قريبًا». ثم سار مبتعدًا بسرعة. تظاهرت بالسير في الاتجاه المعاكس، ثم عدت بحذر إلى مكاني وأصبحت أراقبه.

دخل «إيكاي» مطعم «إيومون»، وبعد معرفتي بذلك، غادرت وأنهيت مشواري في «هيروكوجي». وبعد مدة، اقتحمت المطعم فجأة. أُخذ «إيكاي» على حين غرة، لكنه ببراعته استدعى فتاتين من «الجيشا» وقال لي: «لا تتحدث بفظاظة، تعال نشرب كأسًا معًا اليوم». ثم جذبني إلى غرفة مليئة بالضجيج، وأجبرني على شرب الخمر معه.

كانت تلك أول مرة أشاهد فيها فتيات «الجيشا» في مجلس الطعام، وكانت من بينهن فتاة فائقة الأناقة والجمال، أذكر أن اسمها كان «أوشون». جلست أمام «إيكاي» وقد غلبها السكر، وكان شيء ما يؤرقها، فبدأت تطلق كلمات سمّية. كنت أصغي لها فقط، وما زالت كلماتها ترن في أذني حتى اليوم. قالت: «يا سيد إيكاي، قد تبدو في الظاهر شديد الصرامة، لكنك في الأصل رجل مدلل تمامًا. وأقول لكها صراحةً لتأخذها بعين الاعتبار: المرأة أحيانًا، إذا لم تجد رجلاً يصفعها بقوة على وجهها، فلن تغرم به. تذكر هذا جيدًا».

ربما لا يقتصر الأمر على فتيات «الجيشا» فقط، بل قد تكون النساء جميعًا على هذه الحال. تلك «أوتسونه» اللعينة تحاول دائمًا أن تقيمني إلى جوارها، تعارضني وتقاومني في كل خطوة. ويبدو لي واضحًا ما الذي تريده مني، إنها تريد أن أصفعها! نعم، تريد الضرب بلا شك. فبعد أن جعلتُ «أوتسونه» في الفترة الماضية تعمل وتكدح مثل بقرة أو حصان، دون أن أمدها بطعام جيد، تحولت إلى بهيمة، فقد فقدت كل ملامح الأنوثة فيها. ولكن بعد انتقالنا إلى هذا البيت، وعندما استقدمنا خدمًا ينادونها «يا سيدتي»، بدأت تعيش حياة أكثر كرامة وإنسانية مما كانت عليه من قبل، واقتربت قليلاً من نساء المجتمع الراقي. ثم صارت، كما تقول «أوشون»، تتوق لأن أصفعها وأضربها.

وماذا عني؟ حتى حين كنت فقيرًا، لم أبالِ بكلام الناس، بل كنت أخاطب أي شاب مغرور لا خبرة له بـ«يا سيدي» وأُنحني له. عشت حياتي كاملة دون اهتمام، حتى لو دُسست رجليّ أو دُست تحت الأقدام، كنت أقول: لا بأس طالما لم أخسر شيئًا. قضيت أيامي وأنا أنحني وأركع مثل عنكبوت متمدّد في أي مكان، أمام أي شخص. لكني حين تعاملت مع أهل المجتمع، وجدت أن المتواضع أمام من هو أعلى منه يتعامل بتعالي مع من هو أدنى منه، ويستقوي على الضعفاء. حين يسكر، يصفع المرأة والأطفال. أما أنا فلا يوجد من هو أعلى مني، ولا من هو أدنى مني. أنا فقط أركع

وأنحني أمام من يدرّ عليَّ المال. أما غير ذلك، فوجودهم عندي كعدمهم، لا أبالي بهم إطلاقًا، وأتجاهلهم تمامًا، ولا أكلف نفسي حتى عناء صفعهم أو ضربهم. بدلًا من هذا العبث عديم الفائدة، أفضّل استغلال وقتي في حساب فوائد الربا. وحتى زوجتي كنت أتعامل معها بنفس الطريقة.

«أوتسونه» الآن تريد مني أن أصفعها. إنها مسكينة، لكن هذا هو الحال المأساوي الذي نحن فيه. أنا قادر على عصر شحم المدين حتى ولو كان ليمون بنزهير، فأستخرج منه عصيرًا مريرًا، لكني عاجز عن أن أصفع أحدًا.» هكذا كانت أفكار «سويزو».

الفصل السادس عشر

تزايد بشدة عدد المارة في منحدر «موئنزاكا». فلقد أصبحنا في شهر سبتمبر وبدأ الفصل الدراسي للجامعة، ولذا فالطلاب الذين كانوا قد ذهبوا إلى قراهم في فترة الصيف رجعوا إلى مساكن الطلبة المحيطة بمنطقة «هونجو» مقر الجامعة .

ما زالت هناك أيام حارة أثناء النهار حتى لو كانت معتدلة الحرارة في الصباح والمساء. خيزران الستائر الداخلية للشرفة، الذي جُدِّد عندما انتقلت «أوتاما» لهذا البيت . ولم يفقد لونه الزاهي بعد . مغلق تمامًا من دون أي فتحات سواء في الأعلى أو في الأسفل. تجلس «أوتاما»، التي تعاني من الإحساس بالملل والفراغ، داخل تلك الشرفة مسندة ظهرها أسفل العمود المثبت به عدد من المراوح اليدوية التي بها رسومات للفنان «كيوساي» والفنان «زشين»، تنظر وهي شاردة البال في الرائح والغادي. بعد أن تتخطى الساعة الثالثة، تمر جماعات الطلاب منقسمين إلى ثلاثة أو أربعة أفراد. وفي كل مرة ترتفع همهمات بنات مدرسة الحياكة المجاورة التي

تشبه زقزقة عصافير صغيرة. يحث ذلك «أوتاما» على الانتباه من دون تعمُّد، فتنظر إلى الشخص المار .

كان أغلبية طلاب ذلك الوقت، ممن سيطلق عليهم فيما بعد كلمة المتعالين، ومن النادر ما يمر طالب متأنق، وإذا مر فهو من هؤلاء الذين هم على وشك التخرج. وجوههم بيضاء وأنوفهم سامقة وأعينهم جميلة، هم على أي حال يبدون طائشين سفهاء لا يميل إليهم أحد . أما غير ذلك فربما منهم من يكون متفوقًا في دراسته، ولكنه يبدو في أعين البنات فظًّا غليظ القلب، فهن يكرهن ذلك النوع. ومع ذلك تنظر «أوتاما» إلى الطلبة المارين خارج الشرفة بشكل غير يومي. وفي أحد الأيام اندهشت فجأة لإحساسها بأن شيئًا ما بدأ ينبت داخل قلبها. تخلَّق جنين داخل اللاوعي، واندهشت من كتلة من التخيلات التي بدأت تظهر فجأة للمرة الأولى معلنة عن نفسها بعد أن تكونت في شكل ما .

لم يكن لدى «أوتاما» أي هدف آخر غير إسعاد والدها، ولذا أقنعت والدها العنيد وجعلته يوافق أن تكون محظية. ثم كانت تطلب نوعًا من الأمان من خلال فعل الإيثار هذا بعد أن رأت نفسها تسقط إلى أقصى درجات السقوط. ولكنها في الوقت الذي عرفت فيه أن السيد الذي اتخذها محظية كان من بين كل الرجال مرابيًا، احتارت حيرة شديدة بسبب ضخامة الأمر. وهنا لم تكن تستطيع بمفردها إزالة شعور الضيق من قلبها، ففكرت

في مفاتحة والدها في الأمر وتقاسُم تلك المعاناة والكرب معه. كانت تفكر بهذه الطريقة ولكن عندما توجهت لزيارته في بيته الجديد في «حافة البركة»، ورأت حياته الهادئة المسالمة، لم تستطع أن تصب قطرة واحدة من السم في كأس السعادة الذي يمسك به العجوز في يده. وقررت بكل عزمها أنها مهما كانت درجة مشاعرها المؤلمة ستحتفظ بها في قلبها بمفردها. وفي الوقت نفسه الذي قررت فيه «أوتاما» ذلك، وهي التي كانت حتى ذلك الوقت لا تعرف إلا الاعتماد على الآخرين، أصبحت تملك لأول مرة قلبًا مستقلًّا يعتمد على نفسه .

صارت «أوتاما» منذ ذلك الوقت تراقب نفسها خلسة في كل قول تقوله وكل فعل تفعله، وصارت عندما يأتي «سويزو» لا تخالطه بمشاعر تلقائية ليس بها أية عقد كما كانت تفعل حتى ذلك الحين، بل أصبحت تُضيِّفه بشكل متعمد وواعٍ. وأثناء ذلك كانت مشاعرها الحقيقية تفارق جسدها وتتقهقر إلى جانبها تنظر إليهما. ثم كانت تلك المشاعر الأصلية تضحك ساخرة من «سويزو» ومن نفسها التي هي ملك يمين «سويزو». ولقد أصاب «أوتاما» الرعب عندما انتبهت لذلك للمرة الأولى. ولكنها اعتادت مع مرور الوقت وبدأت تشعر أن قلبها لا يجب إلا أن يكون هكذا .

وبعد ذلك، عندما صار قلب «أوتاما» جافيًا تجاه «سويزو»، صارت ضيافتها له أكثر حنانًا. ثم صارت لا تشعر بالامتنان لـ«سويزو» لأنه يعيلها،

بل أحست أن الأمر لا يتطلب أي شعور بالأسى تجاهه لأنه لا يتلقى منها أي شعور بالجميل تجاه ما يفعله من أجلها. وفي الوقت ذاته، ومع أنها ليس لديها أي فن أو مهارة ولم تتلقَّ أي تدريب أو تهذيب إلا أنها تشعر بالحسرة على أنها في النهاية صارت ملكًا لـ«سويزو». لدرجة أنها تنظر إلى الطلاب المارين أمام البيت، وتفكر لو أن بينهم شخصًا يُعتمد عليه، ينقذها من وضعها الحالي. ثم فجأة تندهش بشدة عندما تنتبه إلى نفسها وقد غرقت في مثل هذه التخيلات .

***

في ذلك الوقت تعرفت «أوتاما» على «أوكادا». ولم يكن بالنسبة إليها إلا مجرد أحد الطلاب الذين يمرون أمام شرفة المنزل. وعلى الرغم من أنه شاب جميل أحمر الوجه عظيم المحيا بارز وسط أقرانه، انتبهت «أوتاما» إلى أنه ليس مغرورًا ولا يتصرف بتعالٍ، وبدأت تفكر أنه ذو صفات شخصية نادرة في هذا الزمن. ومنذ ذلك الحين أصبحت تنتظر كل يوم وهي تنظر خارج الشرفة وتفكر هل يا ترى سيمر ذلك الشاب اليوم أيضًا أم لا؟

كانت «أوتاما» قد صارت تشعر تلقائيًّا بألفة قلبية تجاهه من قبل أن تعرف اسمه أو أين يسكن. ثم فجأة بلا وعي ابتسمت له من جانبها، كانت تلك واقعة لحظية شُلت فيها حركة التحكم في مشاعرها بسبب استرخاء

نفسي، ولم تفعل «أوتاما» الهادئة العاقلة ذلك بقلب متعمد ونية سيئة، وهي أن تعرض الحب عليه من ناحيتها بوضوح .

وعندما أمسك «أوكادا» بقبعته وألقى إليها تحية برأسه، أحست «أوتاما» بقلبها يطير وشعرت باحمرار وجهها. إن مشاعر المرأة المباشرة في منتهى الحدة. كانت «أوتاما» تعرف بوضوح أن خلع «أوكادا» لقبعته لم يكن إلا حركة عفوية وليست متعمدة. ولكنها شعرت بسعادة لا حد لها بدخول تلك العلاقة الصامتة الغريبة لطور جديد، على الرغم من أسياخ الشرفة التي تبعد بينهما، وظلت تكرر كثيرًا رسم منظر «أوكادا» وهو يخلع قبعته في خيالها مرارًا وتكرارًا .

***

عندما تسكن المحظية في بيت سيدها، تكون في موقف الحماية العادية في المجتمع، ولكن المحظية في بيت منفصل تجد معاناة لا يعرفها الأشخاص العاديون. في أحد الأيام دخل بيت «أوتاما» رجل في حدود الثلاثين من العمر يرتدي معطفًا نصفيًّا . من تلك المعاطف التي عليها علامة أحد المحلات . مقلوبًا، وقال لها إنه يريد العودة إلى بلدته في منطقة «شيموسا»، ولكنْ به ألم في قدمه يجعله لا يقدر على السير، وطلب منها شيئًا من المال على سبيل الصدقة. فلفت «أوتاما» ورقة بها قطعة معدنية

بعشرة سنَّات وسلمتها لـ«أوميه» كي تعطيها إياه، ففتح الورقة ونظر فيها قائلًا :

.عشرة سنَّات فقط !

وابتسم هازئًا، وقذف بها وهو يقول :

.كل الناس تخطئ الفهم، فهل لك أن تسمعيني؟

احمر وجه «أوميه» بشدة، والتقطت النقود، ثم، وهي تصعد إلى داخل البيت، صعد بعدها الرجل بلا استحياء، وجلس في مواجهة مجمرة الحطب التي كانت «أوتاما» تغذيها بالفحم. وظل يقول كلامًا كثيرًا، ولكن لم يمكن الإمساك بتلابيب أية قصة. وكرر كثيرًا مقولة: «وقتما كنت سجينًا حدث كيت وكيت»، وبعد أن يتفاخر، تجده قد بدأ في البكاء. وكانت تفوح منه رائحة الخمر لدرجة آلمت صدر «أوتاما ».

تحاملت «أوتاما» على نفسها لكتم رغبتها في البكاء من الخوف، وأخرجت أمام عينيه ورقتين من فئة الخمسين سنًّا الزرقاء التي تشبه في شكلها لعبة الورق التي كانت منتشرة في ذلك الوقت، ولفتهما في ورقة وأعطتهما في يد الرجل صامتة. اكتفى الرجل على غير المتوقع بدون حركة، وقال :

. تكفي ورقتان من ورق النصف ين. أنتِ امرأة ذكية يا أختاه، بالتأكيد ستنجحين في حياتك .

ورحل مترنحًا يجر قدميه .

وبسبب وقوع تلك الحادثة، ولأن «أوتاما» صارت لا تتحمل قلق القلب، تعودت على مقولة «شراء الجار»، فكلما طبخت طعامًا متميزًا، جعلت «أوميه» تحمل طبقًا منه وتذهب به إلى معلمة الحياكة التي تسكن بمفردها على يمين دارها .

كانت المعلمة تسمى «أوتيه»، وهي امرأة بيضاء اللون تخطت الأربعين من العمر ولكن تبدو نوعًا ما أصغر من ذلك بكثير. وكانت قد توظفت في بيت عائلة الحاكم الإقطاعي «مايدا» حتى بلوغها الثلاثين من العمر، ثم تزوجت ولكن زوجها توفي بعد ذلك بفترة قصيرة. وكانت تتحدث بطريقة راقية للغاية، وتكتب الخط الرسمي بشكل جيد. وعندما قالت «أوتاما» لها إنها تريد تعلم ذلك الخط أقرضتها كتب تعليم فنون الخط .

في صباح أحد الأيام جاءت «أوتيه» من المدخل الخلفي لتشكر «أوتاما» على طعام كانت قد أرسلته لها في اليوم السابق. وخلال المحادثة بينهما وهما واقفتان قالت لها «أوتيه»:

. أنت تعرفين السيد «أوكادا»، أليس كذلك؟

لم تكن «أوتاما» تعرف اسم «أوكادا» بعد. ومع ذلك مر بخاطرها سريعًا كالصاعقة أن معلمة الحياكة تقصد ذلك الطالب، وأن سبب قولها ذلك أنها قد رأتها وهي تحييه مبتسمة له، وأنه يجب عليها في هذه اللحظة أن تدعي ولو كرهًا منها أنها تعرفه. أجابت بشكل سريع حتى لا تتعرف «أوتيه» على أثر ترددها وحيرتها للحظات وقالت :

. نعم .

قالت «أوتيه »:

. رجل بمثل تلك الوسامة، ويقال إنه رائع في كل تصرفاته وصفاته .

قالت «أوتاما» بجراءة :

. من العجيب أنك تعرفينه .

. لقد أخبرتني مالكة «مسكن كاميجو» أنه لا يوجد شخص آخر مثله من بين كل هذا العدد الكبير من الطلبة الذين يسكنون عندها .

قالت «أوتيه» ذلك ثم رحلت .

أحست «أوتاما» أنها قد مُدحت بشخصها. ثم ظلت تكرر في فمها كلمتي: «كاميجو»، «أوكادا ».

الفصل السابع عشر

لم تنقص زيارات «سويزو» إلى بيت «أوتاما» مع مرور الوقت، بل على العكس زادت. فعلاوة على مجيئه ليلًا في وقت محدد، صار يأتي كثيرًا في أوقات غير منتظمة. وسبب حدوث ذلك هو إزعاج زوجته «أوتسونه» له والتصاقها به أينما ذهب. تقول له :

. افعل بي شيئًا، افعل بي شيئًا .

فكان يهرب فجأة من البيت ملتمسًا الذهاب إلى «موئنزاكا». كان «سويزو» دائمًا في تلك الحالة يقول لزوجته :

. لا يوجد شيء أفعله، لنبقَ كما نحن عليه حتى الآن .

فتبدأ زوجته في استعطافه بقولها إنه ينبغي فعل شيء .

ثم تعدد له العوائق المختلفة التي تواجه تغيير حياتها الحالية، مثل عدم قدرتها على العودة إلى بلدتها، وعدم قدرتها على فراق الأطفال، وكبر عمرها... إلى آخره. ورغم ذلك يكرر لها أنه لا يوجد ما يجب فعله. وأنه لا بأس من عدم فعل أي شيء. وفي أثناء ذلك تغضب «أوتسونه» أكثر وأكثر،

ويصير التعامل معها مستحيلًا. وعند هذا الحد صار يترك لها البيت ويهرب. كان «سويزو» يندهش جدًّا مما تقوله «أوتسونه» بسبب أن تفكيره في أي أمر يكون منطقيًّا عقلانيًّا طبقًا لعلم الحساب. كان يشعر أنه ينظر إلى شخص في غرفة مغلقة من ثلاث جهات ومفتوحة من جهة واحدة فقط، ويقف بالضبط معطيًا ظهره للجهة الوحيدة المفتوحة، ويعاني ويتألم من عدم استطاعته الذهاب في أي اتجاه. أليس الباب مفتوحًا على مصراعيه؟ لا يوجد ما يقوله «سويزو» لهذا الشخص إلا لماذا لا تنظر إلى الخلف؟ «أوتسونه» حاليًّا لم ترتح فقط مما كانت عليه حتى الآن، ولكنها كذلك غير واقعة تحت أية ضغوط ولا تشعر بأية معاناة أو قيود، ولو قليلًا. بالطبع لا يوجد خلاف أنه حدث شيء جديد لم يكن موجودًا وهو وضع «موئنزاكا»، ولكنه لم يكن مثل بقية رجال المجتمع قد صار باردًا وعنيفًا تجاه زوجته بسبب ذلك. بل على العكس صار أكثر عطفًا وحنانًا عليها من ذي قبل ويعاملها برقة وتسامح. ويرى أن الباب ما زال مفتوحًا على حاله ولم يتغير شيء .

بالطبع تفكير «سويزو» هذا يختلط بأنانيته. السبب أنه حتى لو لم يتغير تعامله مع زوجته عما كان عليه في السابق من الناحية المرئية، بل وحتى لو لم تتغير طريقة كلامه وأسلوبه في التعامل، إلا أنه الآن مع وجود «أوتاما» من المستحيل أن يُطلب منه الشعور بالمشاعر نفسها التي كان

يشعر بها في الماضي عندما لم تكن موجودة. أليست «أوتاما» عبارة عن شوكة في عين «أوتسونه»؟ أليست النية معدومة لديه في نزع تلك الشوكة من عينها وإراحتها؟ ولكن «أوتسونه» غير واعية إلى ذلك بوضوح لأنها في الأصل امرأة لا تفكر في الأمور بشكل منطقي عقلاني، ولكن «لم يعد الباب مفتوحًا كما كان» مثلما يقول «سويزو». فالباب الذي تطل منه «أوتسونه» على راحة الحاضر وأمل المستقبل، عليه ظلال سوداء وكثيفة جدًّا .

في أحد الأيام غادر «سويزو» البيت فجأة هربًا من زوجته بعد عراك معها . كان الوقت قد تخطى الساعة العاشرة صباحًا. وفكر أن يذهب مباشرة إلى «موئنزاكا»، ولكن لسوء حظه كانت الخادمة قد اصطحبت الطفلين الصغيرين في طريق حي «ناناماجاري»، لذا تعمد السير مسرعًا وكأنه في عجلة من أمره مخترقًا الطريق ومتجهًا ناحية منحدر «كيريتوشي»، من دون أن يكون قد فكر في الذهاب إلى مكان محدد. ثم مشى «سويزو» من حي «تنجين» إلى حي «جوكن». وهو يهمس من فمه بكلمات نابية مثل: «اللعنة»، «خراء»، «حيوانات» و«بهائم»، إلخ. وعندما كان على وشك عبور جسر «شوهيه»، جاءت فتاة «جيشا» من الناحية الأخرى. واعتقد برهة أنها تشبه «أوتاما» في بعض ملامحها، ولكن عندما دقق النظر فيها جيدًا، كان وجهها مليئًا بالنمش. وفي الوقت نفسه مع اعتقاده أن «أوتاما» أكثر جمالًا، شعر قلبه بالمتعة والرضا، فأوقف قدميه عن الحركة فترة على

الجسر، وألقى نظرة على ظلال ظهر فتاة «الجيشا» ذات الوجه المليء بالنمش، التي خرجت على الأرجح من بيتها للتبضع أو ما شابه، واختفت في حارة جانبية من حي «كوبوشو ».

مشى «سويزو» متسكعًا باتجاه «ياناجيهارا» من عند مقدمة جسر «مجانيباشي» الذي كان وقتها ما زال جديدًا، غريب المنظر، يرتاده الزوار. كانت توجد مظلة كبيرة مقامة أسفل شجرة صفصاف على ضفة النهر، ورجل يجعل فتاة في الثانية أو الثالثة عشرة من عمرها ترقص رقصة «كابوري» الفكاهية تحتها. وتجمع حولها عدد من المارة يشاهدونها كما هي العادة في تلك الحالات . عندما أوقف «سويزو» قدميه لحظة ونظر إلى الرقص، كان رجل يرتدي سترة نصفية من تلك التي بها علامة تجارية في الظهر على وشك الاصطدام به، وتفاداه بصعوبة ثم سار في طريقه. التفت «سويزو» بعين متحفزة للخلف فالتقت عيناه بعيني ذلك الرجل، الذي عدل من وجهته وانصرف سريعًا، معطيًا له ظهره. همس «سويزو»، وهو يبحث في جيوبه الداخلية بيديه اللتين كان يضعهما داخل أكمامه، قائلًا :

. ما هذا؟ ألا ينظر أمامه؟ !

بالطبع لم يكن ذاك الرجل قد أخذ منه شيئًا. فقد كان ذلك «النشال» بالفعل لا يرى أمامه. يكون «سويزو» عصبي المزاج في الأيام التي يتعارك فيها مع زوجته، ولذا فهو ينتبه إلى أشياء لم يكن لينتبه لها في الأوقات

العادية. حاسته الحادة في العادة تصبح أكثر حدة، لدرجة أنه يحس بنية «النشال» في سرقته قبل أن تبدأ. تقل بدرجة ما قوة تحكم «سويزو» في انفعالاته النفسية، التي يفتخر بأنه يقدر عليها حتى في موقف مثل هذا. ولكن لا يعرف ذلك أغلبية الناس ولا يفهمونه. فإذا تفحص شخص لديه حدة كبيرة للغاية في الحس «سويزو» بدقة، لا بد أن ينتبه إلى أنه أصبح طليق اللسان أكثر مما كان عليه في الماضي، وإلى أن اهتمامه ورعايته للناس، ومخاطبتهم بكلمات تبدو حميمية أثناء كلامه وسلوكه ذلك، غير طبيعية، ومتسرعة بعض الشيء .

اعتقد «سويزو» أنه قد فات وقت طويل منذ أن غادر بيته هاربًا من العراك مع زوجته، فنظر إلى ساعة جيبه مع عودته للطريق على ضفاف النهر. ولكنها لم تبلغ الحادية عشرة صباحًا بعد. لم يمر منذ خروجه من البيت إلا ثلاثون دقيقة فقط .

مرة أخرى ظل «سويزو» على حاله، ينتقل من حي «أواجيتشو» إلى حي «جينبوتشو» بلا هدف يقصده، يذهب سائرًا على قدميه، وكأنه ذاهب فجأة في شأن عاجل. كان وقتها يوجد محل يقع قبل حي «أيماكاوا كوجي» قليلًا، عليه لوحة وجبة «الأوتشازيكيه » بمبلغ 12 سنًّا فقط، يضع لك صينية بها «مزَّة» وشاي أخضر مع الوجبة الأساسية. كان «سويزو» على علم بهذا المطعم، وفكر أن يمر عليه ليتناول به وجبة الغداء، ولكن الوقت

كان لا يزال مبكرًا لفعل ذلك. وبعد أن تخطى ذلك المطعم، انعطف ناحية اليمين ووصل إلى الحي الواسع قبل جسر «مانايتا». لم يكن ذلك الحي مثل ما هو الآن، ملتصقًا باتساع بحي «سوروجاداي». كان تقريبًا عبارة عن «حارة سد» تنتهي عند المنعطف الذي جاء منه «سويزو» الآن، ومن هناك تمر حارة جانبية ضيقة سماها طلبة كلية الطب «الزائدة الدودية»، أمام معبد «شنتو» الذي حُفرت على أعمدته حروف الفنان «تيشو ياما أوكا» الشهير. وذلك سبب تسمية الحي الواسع الذي كان قبل حي «مانايتا» والذي يشبه الحارة السد باسم «الزائدة الدودية ».

عبر «سويزو» جسر «مانايتا». وكان يقع على الجانب الأيمن منه محل لبيع طيور الزينة. وتُسمع منه زقزقة مرحة ومبهجة لأنواع عديدة من الطيور. وعندما مر «سويزو» من أمام ذلك المحل الذي لا يزال موجودًا حتى الآن توقف متأملًا الأقفاص التي بها أنواع مختلفة من الببغاء والمعلقة فوق الإفريز بارتفاع عالٍ، وأقفاص الحمام الأبيض والحمام الكوري الموضوعة في الأسفل، ثم بعد ذلك نقل عينيه إلى الداخل حيث أقفاص الطيور الصغيرة مرتبة بعناية على عدة طبقات من الرفوف. تلك الطيور الصغيرة هي الأكثر نشاطًا سواء من حيث الزقزقة أو الحركة والطيران داخل الأقفاص، ولكن كانت طيور الكناري المستوردة ذات اللون الأصفر المشرق الأكثر لفتًا للانتباه، بين ذلك العدد الكبير من الأقفاص. ولكن الآن وبعد

طول مشاهدة جذبت نظر «سويزو» عصافير حمراء، تلون جسدها الصغير بلون غامق. فجأة فكر أنه سيكون من اللائق جدًّا لو اشترى تلك العصافير وذهب بها إلى «أوتاما» وأعطاها إياها لتعتني بها. وعندها سأل صاحب المحل العجوز الذي يجلس بلا اهتمام ولا تبدو عليه الرغبة في البيع عن سعرها. واشترى زوجًا من العصافير الحمراء. وبعد أن دفع الثمن، سأله العجوز كيف سيحملهما. فأجابه بالسؤال إن لم يكن سيعطيهما له في قفص، فنفى ذلك. وفي النهاية اضطر إلى شراء قفص لهما وجعله يضعهما فيه. أدخل العجوز يده المليئة بالتجاعيد في القفص بعنف وأمسك زوجًا من العصافير ووضعهما في القفص الفارغ. فسأله :

. هل بهذا تعرف أنهما ذكر وأنثى؟

رد البائع بنفور :

. أجل .

عاد «سويزو» إلى اتجاه جسر «مانايتا» حاملًا معه قفص العصافير الحمراء. هذه المرة أصبحت طريقة سيره هادئة، وكان من وقت لآخر يرفع القفص وينظر متلصصًا على الطيور، حتى اختفى تمامًا مزاجه السيئ بعد تعاركه في المنزل ومغادرته له هاربًا، وكأنه قد أُزيل ومسح بالكامل، وطفا على السطح القلب الرقيق الذي يختفي في الوقت العادي داخل ذلك

الرجل. قبضت الطيور داخل القفص بقوة على خشبة الوقوف ربما خوفًا من اهتزازات القفص وضمت أجنحتها بلا أية حركة مطلقًا. في كل مرة يتلصص «سويزو» عليهما بالنظر يفكر في رغبته في الذهاب سريعًا إلى «موئنزاكا» حاملًا إياهما ليعلقهما بجوار الشرفة .

عندما مر «سويزو» بشارع «إيماكاوا» عرج على مطعم «الأوتشازيكيه» لتناول وجبة الغداء. وضع قفص العصافير الحمراء في مواجهة صينية الطعام المصبوغة بالأسود التي وضعتها النادلة على الطاولة، وأثناء تناوله لوجبة الغداء كانت عيناه تنظران إلى الطيور الجميلة وقلبه يفكر في «أوتاما» الأجمل، فشعر أن وجبة «الأوتشازيكيه» . التي لا تعد طعامًا فاخرًا . في غاية اللذة والإمتاع .

الفصل الثامن عشر

بدون ترتيب مسبق، تحولت العصافير الحمراء التي اشترى «سويزو» لـ«أوتاما» إلى جسر تواصل وتبادل حديث بين الأخيرة و«أوكادا».

ذكّرني هذا الحوار بحالة المناخ في ذلك العام. ففي تلك الفترة، كان والدي، الذي توفّي الآن، يزرع نباتات خريفية في الحديقة الخلفية لمنزلنا بمنطقة «كيتاسنجو». وعندما كنت أعود من مسكن الطلبة في «كاميجو» إلى منزل أبي يوم السبت من كل أسبوع، أراه يشتري أعوادًا كثيرة من نبات الخيزران، تحسبًا لما يُعرف بـ«اليوم العاشر بعد المائتين» وموسم الأعاصير، فيربط كل عود منها بنبات الكتان ليُثبّته واقفًا.

لكن «اليوم العاشر بعد المائتين» مرّ بسلام، فقال لي إن الأخطر هو «اليوم العشرون بعد المائتين». ولم يخيب هذا اليوم ظننا أيضًا، إذ مرّ بسلام. ومنذ ذلك الحين، استمرت حالة السحب متقلبة، وكان الجو يبدو مضطربًا كل يوم. أحيانًا يتحول إلى حرارةٍ رطبة تُشعر المرء وكأن الصيف عاد من جديد، وتبدو الرياح القادمة من الجنوب الشرقي وكأنها ستزداد قوةً،

لكنها تتوقف فجأة. قال والدي عن ذلك إنّه «الزوال التدريجي» لليوم العاشر بعد المائتين.

في غروب يوم أحد، كنت عائدًا من منزل العائلة في «كيتاسنجو» إلى مسكن «كاميجو»، حيث كان الطلبة جميعًا خارجًا، وكان المسكن هادئًا تمامًا. دخلت غرفتي وجلست فترة طويلة في شرود الذهن لا أفعل شيئًا، حتى سمعت فجأة صوت احتكاك علبة الثقاب في الغرفة المجاورة، التي كنت أظنّها خاوية. شعرت بالوحدة، فتحدثت مباشرة إلى ساكن الغرفة:

– «أوكادا»، هل أنت هنا؟

– نعم.

كان صوته غامضًا، لا تعرف هل هو رد فعل أم مجرد همس. بعد أن صار «أوكادا» وأنا أصدقاء، لم نعد نتصرف كغرباء في الحديث، ومع ذلك كان ردّه مختلفًا تلك المرة.

فكرت أنني، بما أنني كنت في شرود ذهني، فلا بدّ أن «أوكادا» كان هو الآخر شارد الذهن، غارقًا في التفكير. شعرت برغبة في رؤية وجهه الآن، فجربت أن أبدأ الحديث مرة أخرى:

– هل تسمح لي بإزعاجك قليلًا؟

– لقد جئت في الوقت المناسب، في الحقيقة عدت إلى غرفتي منذ قليل وجلست شارد الذهن، ثم أتيت أنت وجلست في غرفتك المجاورة وأحدثت بعض الأصوات، فحاولت أن أنهض وأشعل الأنوار.

كان صوته هذه المرة واضحًا.

خرجت إلى الممر وفتحت باب غرفة «أوكادا». كانت الشرفة المواجهة تمامًا لـ«البوابة الحديدية» للجامعة مفتوحة، وكان «أوكادا» يستند بمرفقه على مكتبه وينظر إلى الظلام في الخارج. الشرفة محاطة بأسياخ حديدية عمودية، وفي الخارج شجرتان أو ثلاث من أشجار السرو المزروعة بين المبنى والسور.

قلت له:

– ألا ترى أن الجو اليوم أيضًا حارّ وخانق بشكل غريب؟ في غرفتي توجد بعوضتان أو ثلاث مزعجة بشكل لا يُطاق.

جلسْتُ متربعًا بجانبه وقلت:

– حقًّا إنه كذلك. والدي يطلق عليه «الزوال التدريجي لليوم العاشر بعد المائتين».

. نعم، لقب «الزوال التدريجي لليوم العاشر بعد المائتين» مسلٍّ فعلاً. ربما كان الأمر كذلك بالفعل. فالسماء تمتلئ بالغيوم ثم فجأة تشرق صفاءً

صافياً، وكنت متردداً بين الخروج أو البقاء. في النهاية، قضيت الصباح مستلقياً أقرأ رواية «كينبيباي» التي استعرتها منك. وبعد أن غاب ذهني قليلاً إثر تناول الغداء، خرجت أتجول لأتمشى، وهناك صادفت موقفًا غريبًا.

قال «أوكادا» ذلك وهو يحدق نحو الشرفة دون أن يلتفت إليّ.

. ما هو هذا الموقف؟

حوَّل «أوكادا» وجهه نحوي وقال:

. طردتُ ثعباناً من داخل البيت.

. هل كان ذلك لإنقاذ امرأة جميلة؟

. لا، الذي أنقذته كان طائرًا، ولكن القصة تتعلق أيضاً بامرأة جميلة.

. يبدو ذلك مثيرًا. حدثني عنها، أرجوك.

الفصل التاسع عشر

روى لي «أوكادا» القصة التالية:

في ظهيرة يومٍ تَحَلّقت فيه السحب مضطربة، وزأرت الرياح العنيفة مُلقية بزَعبوبها المتتالي في اصطدامات متعاقبة، وتعلّى الطريق ثم انحدر عند الأقدام، خرج «أوكادا» من «مسكن كاميجو» وقد أثقلته الحكايات الصينية التي قرأها لنصف يوم متواصل، بلا هدف محدد يقوده، مكتفياً بأن يترك عنانه يحكمه بمقتضى العادة، فانعطف باتجاه «موئنزاكا» وهو شارد الذهن. ورغم أن جميع روايات الصين تشبه بعضها في الجوهر، فإن أحداث بداية رواية «كينبيباي» تسير على إيقاع هادئ ورتيب يمتد لعشر صفحات أو أكثر، ثم فجأة، وكأنك وُعِدت بذلك، تنقلب إلى سلسلة من العجائب والغَرائب التي تكاد لا تُصدّق.

قال «أوكادا» وهو يتحدث:

– وبما أن ذلك كان بعد قراءتي لتلك الرواية، أظن أن وجهي كان حتمًا يعكس مزيجاً من الغبطة والغباء.

وبينما كان السور الحجري لقصر «إيواساكي» على يمينه، والطريق يهبط تدريجيًا نحو الأطراف، لمح تجمعًا من الناس واقفين على الجانب الأيسر من الطريق، أمام منزل يمر به دومًا وينظر إليه بانتباه خاص، وهو الجزء الذي لم يخبرني عنه «أوكادا» حين حدثني عن الأمر. كان الحضور من النساء فقط، نحو عشرٍ منهن، وأغلبهن فتيات صغيرات أطلقن ضوضاء تشبه زقزقة العصافير.

توجه «أوكادا» بخطوتين أو ثلاث نحوهن، رغم عدم فهمه لما يحدث، ودون أن تثير في نفسه رغبة الفضول.

وبما أن كل الفتيات كانت أعينهن شاخصة نحو هدف واحد، تتبع «أوكادا» مسار نظراتهن ليكتشف مصدر إزعاجهن؛ كان قفص طيور معلقًا فوق شرفة المنزل. ووجد سببًا واضحًا لصراخهن. إذ رأى طائرًا يرفرف بجناحيه الصغيرين ويجتهد في الطيران داخل القفص الضيق، وهو يصرخ بقلق. ثم لاحظ وجود ما يرعب الطائر بشدة، وهو ثعبان كبير من نوع «أفعى الجرذان» يدخل رأسه داخل القفص. بدا أن الثعبان أدخل رأسه بين أعواد البامبو المشكّلة كشفرات، لكن القفص لم ينكسر كما كان يبدو. فقد فتح الثعبان باب القفص، الذي لا يتعدى حجمه، وأدخل منه رأسه.

تقدم «أوكادا» بخطوتين أو ثلاث ليرى المشهد بوضوح أكبر، واقفًا خلف الفتيات، وكتفه موازي لأكتافهن. بدا أن الفتيات اتفقن على اعتباره المخلص، ففسحن له الطريق وجعلنَه في المقدمة.

وهنا اكتشف حقيقة أخرى: أن القفص لا يحوي طائرًا واحدًا فقط، بل طائران شبيهان بنفس اللون، وأحدهما في فم الثعبان. ومع أن جناحًا واحدًا دخل فم الثعبان، بدا الطائر كالميت، إذ كان الجناح الآخر متدليًا بلا حياة، والجسد مترهلًا كقطعة صوف منتفخة.

كانت المرأة التي بدت صاحبة المنزل أكبر قليلًا من «أوكادا» في السن، تتحرك بقلق وعجلة، خاطبته قائلة:

– أرجوك، افعل شيئًا تجاه هذا الثعبان.

وأضافت:

– كل من كنّ في البيت المجاور، اللائي يتدرّبن على العمل، قد حضرن، لكنهن فتيات صغيرات لا يقدرن على فعل شيء.

ثم قالت فتاة صغيرة من بين الحاضرات:

– منذ أن سمعت تلك السيدة ضجيج الطيور، فتحت الباب، ولما اكتشفت وجود الثعبان صرخت بأعلى صوتها. تركنا عملنا وخرجنا نستطلع

الأمر، لكننا في الحقيقة لم يكن بوسعنا فعل شيء، معلمتنا غير موجودة، وحتى لو كانت حاضرة فهي امرأة عجوز لا تملك القدرة على التدخل.

لم تكن المعلمة تأخذ عطلة أيام الأحد، بل كانت تحصل على إجازتها في اليوم الأول واليوم السادس عشر من الشهر، لذا كانت التلميذات فقط من تجمعن هناك.

عندما روى لي «أوكادا» هذه القصة قال:

– كانت صاحبة المنزل تلك امرأة فائقة الجمال.

لكنه لم يخبرني أنها امرأة يعرفها مسبقًا، أو أنه كان يمر من أمام بيتها ويحييها.

قبل أن يرد «أوكادا» على هذا الكلام، اقترب من القفص وأمعن النظر في حالة الثعبان. كان القفص يميل باتجاه بيت معلمة الحياكة المجاور، ويتدلى من النافذة، وكان الثعبان قد أدخل رأسه مقتربًا من القفص ومستهدفًا إياه بعد أن تمالك نفسه وتسلق الإفريز الخشبي الذي يربط بين ذلك البيت والبيت المجاور. كان جسد الثعبان يشبه حبلًا معلقًا اخترق ذراع الإفريز الخشبي، بينما ظل ذيله مختفيًا خلف صدر العمود في الزاوية. كان ثعبانًا كبير الحجم، على الأرجح يسكن في مكان ما في منطقة «كاجاياشيكي» التي تكسوها الحشائش والأشجار.

ربما شعر الثعبان بتغير الضغط الجوي مؤخرًا بسبب تقلبات الطقس، فخرج من مخبئه تائهًا، وخلال تجواله اكتشف قفص الطيور هذا.

احتار «أوكادا» قليلًا فيما ينبغي عليه فعله. كان من المفهوم تمامًا أن الفتيات لا يستطعن فعل شيء حيال هذا الثعبان.

قال «أوكادا»:

– هل لي بآلة حادة؟

فأجابت صاحبة المنزل إحدى الفتيات الصغيرات:

– اذهبي وأحضري سكينًا من المطبخ.

وكانت تلك الفتاة، التي بدت وكأنها خادمة، ترتدي «كيمونو» منزليًا مثل البنات الأخريات اللاتي يتعلمن الحياكة، وتربط فوقه وشاحًا قطنيًا خفيفًا بلون بنفسجي.

نظرت الخادمة إلى سيدتها بعينين تحملان بعض الرفض، إذ بدا عليها أنها اعتبرت أن استخدام سكين مخصص لقطع الأسماك في تقطيع جسد الثعبان أمرًا غير لائق.

فقالت لها سيدتها:

– لا بأس من فعل ذلك، وسأشتري لك واحدة جديدة لتستخدميها في إعداد الطعام.

دخلت الخادمة مسرعة إلى داخل المنزل، كأنها اقتنعت بالكلام، وعادت ممسكة بسكين قطع الأسماك.

أخذ «أوكادا» السكين منها وكأنه كان يترقّبها على أحر من الجمر، خلع قبقابه الذي كان يرتديه، ووضع قدمه على إفريز النافذة. لقد كان الجمباز من بين مهارات «أوكادا»، وكانت يده اليسرى تقبض بقوة على العمود الخشبي لإفريز الحائط. ولأنه كان يدرك أن سكين الأسماك، حتى وإن كانت جديدة، ليست حادة بما يكفي، لم يحاول من البداية قطع الثعبان بضربة واحدة. بل ثبت جسد الثعبان على العمود مستخدمًا السكين، ثم حرّك حدّها يمينًا ويسارًا مرتين أو ثلاث مرات فوق جسده.

أحسّ «أوكادا» بيده وهي تقطع قشر جلد الثعبان كما لو كانت تشق قطعة زجاج، وفي تلك اللحظة أصيب الثعبان، الذي ابتلع رأس الطائر بعد أن كان يقتنص جناحه فقط، بجرح عميق في جسده. بدأ الثعبان يتلوى كموج البحر، دون أن يحاول أن يلفظ الصيد الثمين، أو يخرج عنقه من القفص.

واصل «أوكادا» تحريك السكين خمس أو ست مرات أخرى، دون أن يفرّج عن قبضته، وعندها أخيرًا قطعت السكين غير الحادة جسد الثعبان إلى نصفين، وكأنها تقطع لحمًا فوق لوح التقطيع. سقط النصف السفلي من جسد الثعبان، وتكاثرت حركاته الموجية بلا توقف، مرتخيًا أولًا فوق تجمع مياه المطر بين البيتين حيث نبت الزنبق.

ثم انحرف نصف الثعبان العلوي من فوق إفريز النافذة التي زحف منها داخل البيت، وتدلى وعنقه لا يزال محشورًا في القفص كما هو. الرأس، الذي انتفخ بسبب ابتلاعه نصف الطائر، كان عالقًا وغير قادر على الإفلات من خيزران القفص الذي انثنى على شكل قوس دون أن ينكسر. أضاف ثقل نصف الثعبان العلوي ميلانًا للقفص بزاوية 45 درجة.

كان الطائر الآخر، الذي لا يزال على قيد الحياة، يطير في القفص مرفرفًا بجناحيه باحثًا عن مخرج، رغم إرهاقه.

ترك «أوكادا» العمود الخشبي وقفز هابطًا إلى الأرض. كانت الفتيات تحبسن أنفاسهن، وعندما رأت ذلك دخلت اثنتان أو ثلاث عائدات إلى بيت معلمة الحياكة.

نظر «أوكادا» إلى وجه مالكة البيت وقال:

. يجب إنزال هذا القفص وإخراج رأس الثعبان منه.

كان نصف الثعبان العلوي لا يزال متدليًا، وقطرات دماء سوداء تنساب من الجرح على ألواح النافذة، فلم تجرؤ مالكة البيت ولا الخادمة الصغيرة على الدخول لفك خيوط الكتان التي يعلق بها القفص.

فإذا بصوت يصرخ من بين الجموع:

.هل أقوم أنا بإنزال القفص لكم؟

توجه الجميع نحو مصدر الصوت، فإذا به صبي بائع «الساكي». لم يمر أحد ذلك المساء من منحدر «موئنزاكا» سوى هذا الصبي وحده، بينما كانت قناني «الساكي» معلقة من يده بحبل من نبات اللبلاب ودفتر الحسابات معلقًا. ظل يراقب عملية قتل الثعبان بفضول.

وعندما سقط نصف الثعبان السفلي، ألقى الصبي قنانيه ودفتر الحسابات على الأرض، والتقط حجرًا صغيرًا وضرب به النصف المقطوع من الثعبان. وتابع تحركات النصف السفلي الذي لم يمت بعد، وكلما ضربه الحجر تحرك بحركات موجية.

طلبت منه مالكة البيت:

.إذا كان يمكنك ذلك، أرجو منك أن تقوم به.

اصطحبت الخادمة الصغيرة الصبي، ودخلا من باب السور المصنوع من الأسلاك إلى داخل المنزل. وعلى الفور، تسلق الصبي النافذة، التي بدا

منها، فوق ألواحها الموضوع عليها حوض الزنبق، ونزع خيوط الكتان المتدلية من القفص عن المسمار الذي يعلقه، بعد أن مد جسده إلى أقصى طول قامته. ثم نزل من فوق ألواح النافذة ممسكًا بالقفص، لأن الخادمة لم تأخذ منه القفص، وتجهّز نحو الباب وخرج من البيت.

حذر الصبي الخادمة التي جاءت معه بخيلاء قائلاً:

. سأظل ممسكًا بالقفص، لكن عليكِ إزالة قطرات الدم التي سقطت على حصير «التاتامي».

أجابت سيدتها:

.حقًّا، يجب مسح الدماء فورًا.

عادت الخادمة من الباب إلى داخل المنزل مرة أخرى.

نظر «أوكادا» إلى القفص الذي حمله الصبي وهو يتفحصه، فلاحظ أن أحد الطيور توقف عن الطيران فوق الخشبة، مرتجفًا من الرعب، في حين أن أكثر من نصف جسد الطائر الآخر كان داخل فم الثعبان بالفعل. وعلى الرغم من أن جسد الثعبان قد قُطع إلى نصفين، إلا أنه كان لا يزال يحاول ابتلاع الطائر حتى اللحظة الأخيرة.

نظر الصبي إلى وجه «أوكادا» وقال:

.لنحاول إخراج الثعبان من القفص.

ضحك «أوكادا» وأجاب:

.حقًّا يجب إخراجه، لكن من الأفضل أن يُخرج عن طريق إدخال رأسه كاملًا في القفص ثم سحبه من الباب، وإلا سينكسر خيزران القفص.

بمهارة، نزع الصبي رأس الثعبان، وبعد أن أخرج الطائر من فمه باستخدام أصابعه وشد مؤخرة الطائر، قال:

.حتى بعد موته، لا يريد الثعبان ترك الطائر.

ربما شعرت فتيات مدرسة الحياكة اللائي بقين حتى ذلك الوقت أنه لا يوجد ما يستحق المشاهدة، فعندها دخلن جميعًا إلى البيت المجاور من خلال الباب الموجود في سور المنزل.

نظر «أوكادا» حوله ثم قال:

.أخيرًا، عليّ أن أستأذن بالرحيل.

كانت صاحبة المنزل تبدو شاردة الذهن، تفكر في أمر ما، وعندما سمعت قول «أوكادا»، نظرت إليه متحيرة فيما تريد قوله ثم أزاحت نظرها عنه. عندها لاحظت أن يده قد تلطخت قليلاً بالدماء، فقالت:

. مهلًا! يبدو أن يدك قد اتسخت ببعض الدماء.

نادَت الخادمة وأمرتها أن تذهب لإحضار إناء وإبريق لغسل اليدين.

عندما رواها لي «أوكادا» تلك الحكاية، لم يذكر تفاصيل وضع المرأة بدقة، لكنه قال:

. اندهشت من دقة المرأة في اكتشاف تلك الدماء القليلة جدًا على إصبع خنصر يدي.

بينما كان «أوكادا» يغسل يده، صاح الصبي، الذي كان لا يزال يحاول إخراج جثة الطائر من فم الثعبان، قائلاً:

. يا للفظاعة!

وضعت صاحبة المنزل، التي كانت تقف بجانب «أوكادا» ممسكة بمنشفة جديدة مطوية، إحدى يديها على سور البيت المفتوح الباب، ونظرت للخارج قائلة:

. ماذا حدث أيها الصبي؟

فرد الفتى وهو يمد يديه ويدعمهما بالقفص:

. الطائر الذي لا يزال على قيد الحياة كان على وشك الهرب من الفتحة التي أدخل الثعبان منها رأسه.

أنهى «أوكادا» غسل يده وقال للفتى وهو ينشف يده بالمنشفة التي ناولته إياها صاحبة البيت:

.أبقِ يديك نظيفتين.

ثم طلب شيئًا قويًّا كخيط أو ما شابه لإغلاق الفتحة في القفص بحيث لا يستطيع الطائر الهرب منها.

فكرت المرأة قليلاً ثم قالت:

.ما رأيك في خيط ربط الشعر؟

قال «أوكادا»:

– جيد جدًا.

أمرت صاحبة البيت الخادمة بإحضار خيط لربط الشعر من درج المرآة في غرفتها.

أخرج «أوكادا» طرف الخيط وقال:

– هل سيكون هذا كل ما هو مطلوب مني في البداية؟

أجابت صاحبة البيت، وهي تبدو مترددة في اختيار كلماتها، كأنها ترغب في إضافة شيء:

– أشكرك كثيرًا.

ثم وجّه «أوكادا» كلامه إلى الفتى قائلاً:

– يا فتى، بعد تعبك هذا، أرجو أن تساعدنا في التخلص من جثة الثعبان.

رد الفتى:

– حاضر. سأرميه في أعمق نقطة من قناة الصرف أسفل المنحدر. هل يوجد حبل هنا؟

التفت حوله يبحث، ثم قال:

– يوجد حبل، سأعطيك إياه. انتظر قليلًا.

أصدرت السيدة أمرًا للخادمة أثناء ذلك.

وقال «أوكادا»:

– مع السلامة.

ونزل المنحدر دون أن يلتفت إلى الوراء.

***

ثم نظر «أوكادا» إليّ قائلاً:

– ألا ترى أنني بذلت جهدًا كبيرًا في ذلك العمل؟ حتى لو كان من أجل امرأة جميلة.

فقلت له بكل صراحة، دون تجميل أو تزيين:

– حقًا. قتل ثعبان من أجل امرأة عمل مسلٍ، كأنه حكاية من أساطير الآلهة، لكن يبدو أن الأمر لن ينتهي عند هذا الحد.

رد «أوكادا»:

– لا تتغابى يا رجل. لو كانت قصة لم تُكمل بعد، لما أخبرتك بها.

بدا عليه أنه لم يقل ذلك من باب المظاهر فقط، ولكن حتى لو افترضنا أن هذا هو ختام القصة، فثمة شعور لدى «أوكادا» بالحسرة وكأن شيئًا ما مفقود.

حين سمعت حديثه، قلت ببساطة إنها تشبه الأساطير الإلهية، لكنني أخفيت أمرًا آخر كان يخطر ببالي وقتها؛ وهو أن «أوكادا» الذي خرج من مسكنه بعد قراءة رواية «كينبيباي» ربما قد التقى بـ«كين لين» بطلة الرواية نفسها.

لم يكن في الجامعة طالب واحد لا يعرف اسم «سويزو» الذي كان يعمل فرّاشًا يجلب المشتريات للطلاب، وصار الآن مرابيًا. حتى من لم يقترض منه مالًا على الأقل يعرف اسمه.

لكن قلة منهم كانوا يعلمون أن امرأة «موئنزاكا» هي محظية «سويزو»، وكان «أوكادا» واحدًا منهم.

كنت حينها لا أعلم شيئًا عن طبيعة تلك المرأة، لكني كنت أعرف فقط أن «سويزو» يحتفظ بمحظية في البيت المجاور لبيت معلمة الحياكة. وكانت معلوماتي أكثر بكثير مما كان يعرفه «أوكادا».

الفصل العشرون

شعرت «أوتاما» في ذلك اليوم الذي قتل فيه «أوكادا» الثعبان من أجلها، أن مشاعرها تجاهه بدأت تتغيّر بشكل درامي، حتى أنها هي ذاتها اندهشت من هذا التحوّل. وكان سبب هذا التغير هو حديثها معه لأول مرة على مقربة، بعد أن كان تواصلهما سابقًا لا يتعدى تحية صامتة تُرسل عبر العينين فقط.

هناك بضائع تتمنى المرأة امتلاكها، لكنها لا تفكر قطّ في المبادرة إلى شرائها، رغم اشتياقها لها. تمرّ المرأة أمام خزانة عرض زجاجية تكتظ بساعات أو خواتم، فتتأملها بكل شغف. لا تذهب إلى تلك البضائع عن قصد، لكنها حين تعبر أمامها في طريقها لشراء شيء آخر، لا بد أن تتوقف لحظة وتنظر إليها. تتلاقى رغبتها في الاقتناء مع يأس خافت، لا يصل بها إلى حد وضع خطة للشراء، فيولد لديها شعور عذبًا من الأسى لا يؤلمها كثيرًا، وتستمتع بتذوقه.

وفي المقابل، المنتج الذي تقرر المرأة شرائه، يجلب لها آلامًا موجعة لا تسمح لها بالهدوء. حتى ولو علمت أنها ستحصل عليه بعد أيام قليلة، لا تجد لديها متسعًا للانتظار، بل تذهب أحيانًا لشرائه على نحو مفاجئ، بلا تفكير في حر أو برد، ليلاً أو نهارًا، في المطر أو الثلوج. وحتى المرأة التي تسرق ذلك الشيء خلسة من المحل ليست شاذة أو غريبة، بل هي امرأة تشوّهت عندها الحدود بين الشيء الذي تريد امتلاكه، والشيء الذي ترغب في شرائه.

كان «أوكادا» بالنسبة إلى «أوتاما» حتى ذلك الحين شيئًا ترغب فقط في الحصول عليه، لكنه فجأة أصبح شيئًا تريد شرائه.

استغلت «أوتاما» فرصة إنقاذ «أوكادا» لطائرها الصغير لتقترب منه بأي طريقة ممكنة. فكرت أولًا في إهدائه شيئًا عبر «أوميه» شكرًا له. لكن ما ذلك الشيء؟ هل تشتري له كعكة البقول الريفية من قرية «فوجيمورا»؟ كان هذا أمرًا عاديًا وغير مبتكر، مجرد مجاملة اجتماعية قد يفكر بها أي أحد. ولو قررت أن تسلمه إياها يدًا بيد، ربما سخر منها باعتبارها فتاة ساذجة تفتقر إلى خبرة الحب.

لم تستطع أن تجد فكرة أفضل، وحتى لو توصلت إلى هدية مبتكرة، فهل ستجعل «أوميه» توصلها له؟ كانت تملك بطاقة اسم صنعتها قبل أيام في حي «ناكاماتشي»، لكنها شعرت بأنها ناقصة إن وضعتها مع الهدية

فقط. كانت تتمنى أن تكتب له كلمة ما، لكن الأمر كان معقدًا. لقد أنهت تعليمها بعد المدرسة الابتدائية ولم تتح لها فرصة التعلم بعد ذلك، فلم تستطع كتابة خطاب يرضيها.

بالطبع كان بإمكانها طلب ذلك من جارتها معلمة الحياكة التي خدمت في بيت الحاكم الإقطاعي، لكنها كانت تكره ذلك. لم تكن تنوي كتابة شيء يطلع عليه أحد، وفي الوقت نفسه لم تكن ترغب في أن يعرف أحد أنها كتبت خطابًا لـ«أوكادا».

فما الذي حدث لها إذن؟

تمامًا كما يقطع المرء الطريق ذهابًا وإيابًا، كانت «أوتاما» تفكر في الأمر بالتسلسل ثم بالعكس، ثم تغفل عنه حين تشغف بوضع مساحيق الوجه، وتعطي أوامرها لـ«أوميه» في المطبخ، ثم تستعيد التفكير فيه من جديد.

وفي أثناء ذلك، جاء «سويزو» وتذكرت «أوتاما» أمرها وهي تصب له «الساكي»، فسألها بنبرة مؤنبة:

. ما الذي تفكرين فيه بكل هذه الجدية؟

فأجابت بابتسامة بلا معنى:

. ماذا؟ أنا لا أفكر في شيء على الإطلاق.

كتمت «أوتاما» خفقان قلبها قدر المستطاع، وكونها قد تدربت وتمرسَت كثيرًا حتى ذلك الحين، لم تكشف عينا «سويزو» الحادتان عن أي سرٍ تخفيه. في الحلم الذي رأت بعد رحيل «سويزو»، أخيرًا اشترت «أوتاما» علبة حلوى، فأعطتها بسرعة إلى «أوميه» وأخرجتها، لكنها لاحظت بعد حين أنها نسيت وضع بطاقة اسمها أو رسالة بداخلها، فاستيقظت من نومها وهي تملؤها الدهشة.

في اليوم التالي، عجزت «أوتاما» عن رؤية وجه الحبيب؛ إذ لم يخرج «أوكادا» للتنزه كما اعتادت، أو ربما لم تره يمر بها. وفي اليوم الذي يليه، مر «أوكادا» كعادته أمام النافذة، ألقى نظرة خاطفة، لكن بسبب ظلمة البيت لم تلتقِ عيناه بعيني «أوتاما». ثم في اليوم التالي، حين أقبل الوقت المعتاد لعبور «أوكادا»، أخرجت «أوتاما» مقشة الحشائش وبدأت تنظف المكان أمام بوابة الأسياخ التي بالكاد تخلو من الأوساخ، وبدلًا من الخف الذي ترتديه، لم يكن لديها سوى قبقاب خشبي واحد، فكانت تمضي الوقت بتزجيه يمينًا وشمالًا.

حينها خرجت «أوميه» من المطبخ قائلة:

«سيدتي، سأقوم أنا بذلك.»

أعادتها «أوتاما» إلى المطبخ بابتسامة خفيفة:

«لا عليكِ، راقبي الطعام على النار، فأنا أفعل هذا فقط لقضاء الوقت، ولأنني لا أجد شيئًا آخر أفعله.»

وفي تلك اللحظة بالذات، مر «أوكادا» من أمامها، خلَع قبعته تحيةً لها. كانت «أوتاما» لا تزال تمسك بالمقشة وتقف بجانب عمودها، واحتدمت خجلاً حتى احمرت وجنتاها، ولم تستطع أن تنطق بكلمة، لترتددت يد «أوكادا» من بين يديها ويمضي مبتعدًا.

ألقت المقشة أرضًا وكأنها عود فحم مشتعل أحرق كفها، وخلعت خفها، ثم دخلت البيت مسرعة.

جلست بجانب مجمرة الحطب، ممسكة بسيخ حديدي تلعب به في لهيب النار، وتفكر:

«يا لي من امرأة حمقاء! ظننت أن فتح النافذة في هذا اليوم البارد والنظر للخارج كان أمرًا بسيطًا، فتمثلت تنظيف البوابة التي لا حاجة لتنظيفها، لكن في اللحظة الحاسمة التي انتظرتها لم أستطع قول ما أردته، مع أني أستطيع أن أخاطب سيدي مهما كان، فقط بفكرة في بالي، حتى لو كان الوقت غير مناسب. لماذا لم أتمكن من التحدث إلى «أوكادا»؟ على الأقل، كان من الطبيعي أن أشكره على عونه. ربما فقدت الفرصة إلى الأبد بسبب عدم إخباري له بكلمة شكر. وحتى لو فكرت في إهدائه شيئًا عبر

«أوميه»، فما الفائدة إذا لم أستطع الكلام معه حين لقائنا؟ لماذا عجزت عن الكلام حينها؟ نعم، كنت أحاول قول شيء ما، لكني لم أجد العبارة المناسبة. لا أستطيع أن أناديه بألفة وأقول: «يا سيد أوكادا!» ومع ذلك، من الصعب جدًا أن أقابله وجهًا لوجه وأقول مثلًا: «مرحبًا، مرحبًا». عند التفكير بهكذا، لا عجب في ارتباكي. الآن بعد أن هدأت أفكاري، لم أصل بعد للطريقة المثلى لمخاطبته. كلا، هذا يدل على حمقي كما ظننت. لم يكن من الضروري مناداته بشيء، كان الأفضل أن أخرج نحوه على الفور. لو توقف فقط، لكان يمكنني قول أي شيء، مثلاً: «أشكرك على ما فعلته لي في ذلك اليوم العصيب.»»

وبينما تغوص «أوتاما» في أفكارها، كانت تلعب بسيخ الحديد في النار، إذ بدأ غطاء إبريق غلي الماء يتراقص فوق اللهب، فرفعت الغطاء قليلاً ليخرج البخار من داخله.

ثم شرعت «أوتاما» تتأمل مليًّا في طريقتين لا ثالث لهما: إما أن تخاطب «أوكادا» بنفسها مباشرة، أو تستعين بشخص آخر ينوب عنها. وفي خضم هذا التأمل، بدأ الليل يبرد رويدًا رويدًا، حتى صار فتح النافذة أمرًا صعب التحقيق، وصار تنظيف الحديقة، الذي كان مقرّرًا أن يحدث مرة واحدة فقط صباحًا، يُعاد مرتين صباحًا ومساءً بعد ما وقع في ذلك اليوم، فتعثّرت قدرتها على مد يدها للتنظيف. حاولت «أوتاما» تأجيل ذهابها إلى الحمام

العام، على أمل أن تلتقي «أوكادا» في منتصف الطريق، لكن قرب الحمام العام الواقع أسفل المنحدر حال دون ذلك. ومع مرور الأيام، صار اللجوء إلى وسيط أمراً أشد تعقيدًا.

تأملت «أوتاما» طويلاً، حتى أجبرت نفسها على اليأس، قائلة في سرّها: «سأظل على هذه الحال دون أن أقول كلمة شكر لـ«أوكادا». فإذا ظننا أن الأمور لا تمر دون كلمة شكر، فهذا يعني أنني سأظل دائمًا مديونة له بالجميل الذي صنعه من أجلي. ومن المفترض أنه يدرك ذلك، وأن يبقي الوضع كما هو أفضل من أن أقول كلمة شكر بعجلة وبشكل ناقص.»

ومن ثم رغبت «أوتاما» في الاقتراب من «أوكادا» بأسرع ما يمكن، وجعلت من ذلك الجميل حجة لها، لكنها كانت عاجزة عن إيجاد سبيل، فمع مرور الأيام ازداد كربها، يعجز عن إدراكه أحد.

***

ذاقت «أوتاما» ذات العزيمة الصلبة ما يشبه العذاب خلال تلك الفترة القصيرة منذ أن صارت محظية لـ«سويزو»، من احتقار المجتمع لها علنًا، وحسدهم لها في الخفاء. لكنها، بفضل ذلك كله، نمت فيها صفة استهزاء المجتمع المحيط بها. وبسبب أصلها الطيب وعدم تأثرها بالمجتمع بعد،

ظنت أن الاقتراب من مسكن الطلبة، حيث يقيم «أوكادا»، سيكون أمرًا مزعجًا.

لم يختلف الحال كثيرًا عمّا كان قبل حادثة الثعبان، وانتهى الأمر بعد وقوعها دون أن تتمكن من بناء علاقة قريبة ولو قليلاً. كانت في تلك الأثناء تكتفي بتحية «أوكادا» بانحناءة خفيفة من رأسها عندما يكون الجو معتدلاً في الخريف وتظل الشرفة مفتوحة، لكن العلاقة بينهما لم تتطور أبعد من ذلك، رغم أنها وقت حادثة الثعبان تحدثت إليه عن قرب، وأعطته المنشفة يدًا بيد. وأحسّت «أوتاما» حينها بمرارة وغضب عميقين.

حتى وإن جاء «سويزو» وأجلسته قبالتها بجانب مجمرة الحطب، كانت تفكر كيف كان سيبدو الأمر لو جلس «أوكادا» مكانه. في البداية، كانت تلوم نفسها على وقاحتها تلك، لكنها مع الوقت صارت لا تعير بالًا لتلك الأفكار، وهي تواكب حديث «سويزو» كيفما اتفق. ثم، عندما تصبح حرة منه، تغمض عينيها وتفكر في «أوكادا». أحيانًا تراودها أحلام تجمعهما معًا بلا ترتيب مرهق أو تنظيم مسبق، وعندما تشعر بالسعادة قائلة في سرها: «آه كم أنا سعيدة»، يتحول رفيقها فجأة من «أوكادا» إلى «سويزو»، فتفزع وتفتح عينيها مستيقظة، فتضطرب أعصابها فلا تنام، وأحيانًا تبكي من الكرب.

جاء شهر نوفمبر كأنه طيف عابر في زحمة الأيام، واستمرت الشمس تداعب الأفق بأشعتها الدافئة، فكان إبقاء النافذة مفتوحة طوال النهار أمرًا طبيعيًا لا يثير انتباه أحد. ومن خلال تلك النافذة، كان بوسع «أوتاما» أن ترى وجه «أوكادا» يوميًا، فتغمرها مشاعر مختلطة بين الشوق والفرح. لكن حين حلت بعض الأيام الباردة والممطرة، لم تقدر على رؤية وجهه، فخيم عليها الكآبة بعض الوقت. ورغم ذلك، وبما أنها تتمتع بطبع رزين ومتزن، لم تسمح لهذه الكآبة أن تتحول إلى تذمر أو شكاية، ولم تزعج «أوميه» بطلبات غير معقولة، ولا أظهرت أي عابس وجهها أمام «سويزو». بل كانت تجلس بهدوء، تضع مرفقها على حافة مجمرة الحطب، وتنطلق بأفكارها إلى حيث لا يراها أحد، حتى تأتي «أوميه» وتسألها بلين:

.هل تعانين من شيء يا سيدتي؟

وعندما تعود أيام النسمات المعتدلة، ورؤية «أوكادا» تتكرر على الدوام، تعود إليها الحياة بنشاط، وترتسم على وجهها ابتسامة مشرقة، فتخرج في صباح أحد الأيام من منزلها بخفة وخطى واثقة متجهة إلى بيت والدها بجوار «حافة البركة».

كانت «أوتاما» تحرص على زيارة والدها أسبوعيًا، لكنها لا تطيل المكوث عنده، إذ يمنعها هو عن ذلك بلطف لكنه بحزم. يعاملها برقة وحب، يعرض عليها أطايب الشاي الأخضر، ثم يودعها قائلًا:

. ارجعي لبيتك.

ليس لأن قلبه ضيق أو مزاجه سيئ، بل لأنه يظن أنه لا يجب أن يحتجزها وقتًا طويلًا بعد أن سلّمها لخدمة الرجل الذي تعيش عنده. وعندما حاولت يوماً أن تبقى لفترة أطول، قال لها:

. قد يكون سيدك لم يأتِ صباحًا من قبل، لكن قد يأتي في أي وقت. فلا تغيبي عن البيت طويلاً بحجة التبضع إلا بإذنه، حتى لا يكون عندك عذر حين يظن أنك تتسكعين.

كانت «أوتاما» تخشى أن يطّلع والدها على طبيعة عمل «سويزو»، فكانت تراقب حاله بدقة عند زيارتها، لكنها تكتشف أنه يجهل كل شيء، وهذا أمر يريحها حقًا.

بعد انتقال والدها إلى «حافة البركة»، بدأ يهتم بقراءة الكتب المستعارة، التي غالبًا ما تكون نسخًا يدوية تحتوي على سجلات الأحداث والذكريات. وكان يتلوها بنظاراته التي لا تفارقه. هو الآن منشغل بكتاب

«وقائع ميكاوا فودوكي»، كتاب ضخم يقسم متعته في مطالعاته. عندما يعرض عليه صاحب المكتبة كتب الروايات والمسرحيات، يرد بنفور:

.أكيد كل ما فيها أكاذيب.

ولا يرضى حتى بتصفحها. في الليل، يشعر بتعب عينيه فيعمد إلى الترفيه عن نفسه بالذهاب إلى مسارح الأحاديث الكوميدية، حيث يسمع عروض «الراكوجو» و«جيدايو»، لكنه لا يحب مسارح «هيروكوجي» التي تعرض الحروب إلا إذا جاء متحدث يعجبه.

هذا هو تسلية حياته الوحيدة، وليس لديه أصدقاء لأنه لا يهتم بالحديث في الأمور التافهة، ولهذا لا يتكلم عن حقيقة «سويزو».

ومن جهة الجيران، بدأ البعض يتساءل عن هوية تلك المرأة الجميلة التي تزور العجوز، فتبين أخيرًا أنها محظية المرابي. ولحسن الحظ، أن الجيران المجاورين للبيت لا يتحدثون كثيرًا، فإما أن أحدهم يعمل في متحف يحفظ الكتب القديمة بنسخ خط اليد، أو آخر يمارس الطباعة على الخشب، وهما لا يميلان للنميمة ولا يزعجان من حولهما، فظل السر محفوظًا.

في ذلك الوقت، كانت البيوت على جانبي منزل والد «أوتاما» تضم محلات قليلة: مطعم «هاسوتاما»، محل حلوى المقرمشات اليابانية،

وأخيرًا محل «جوسان يا» الذي يبيع الأمشاط، قريبًا من طريق «هيروكوجي». وكانت الحياة تسير بهدوء في تلك الأرجاء.

ما إن يشعر العجوز بفتح البوابة الحديدية ودخول أحدهم، ويُسمع وقع القبقاب الخفيف، بل وقبل أن يصدُر ذلك الصوت الرقيق، يعرف على الفور أن ابنته «أوتاما» قد وصلت. حينها يضع كتابه «وقائع ميكاوا فودوكي» الذي كان قد توقف عن قراءته على الأرض، وينتظرها. ثم يخلع نظارته التي تعتلي عينيه، فاليوم الذي يرى فيه وجه ابنته الجميل هو بمثابة عيد له. ورغم أنه يفضل أن يبقي نظارته مرتدية، فإن قدوم ابنته يجبره على خلعها، إذ يشعر بعدم ارتياح كأن النظارة تفرض حجابًا بينه وبينها.

تتراكم في ذهنه الأمور التي يرغب في الحديث عنها مع ابنته، ومع أنه يترك جزءًا منها لا يُفصح عنه بسبب النسيان، إلا أنه يدرك ذلك بعد رحيلها. لكنه لا يغفل عن السؤال عن صحة «سويزو» وسلامته، فيسألها دومًا:

«هل سيدك في مزاج جيد؟»

وفي هذا اليوم، رأت «أوتاما» والدها في صحة جيدة ومزاج حسن، وأطلّعها على حكاية «السيدة أتشا نو تسوبونه»، وأكرمها من الحلوى

المقلية، التي يبلغ طول القطعة المربعة منها ثلاثين سنتيمترًا، اشتراها من عربة متجولة في شارع «هيروكوجي» بمنطقة «أوسنجي».

ومن حين لآخر، كان والدها يسألها:

.ألم يحِن وقت العودة بعد؟

فكانت ترد وهي تضحك:

.ليس بعد.

ظلّت بجواره حتى دنا الظهيرة، ثم ازداد إلحاحه عليها بالعودة بسرعة حين أخبرها أن «سويزو» أحيانًا يأتي فجأة في هذا التوقيت. أحسّت بذلك في قلبها، وعرفت أنه في يوم من الأيام ستصير جريئة، تكشف وجهها دون خوف، فلا تهمها مسألة حضور «سويزو» أثناء غيابها أو لا.

الفصل الحادي والعشرون

بدأ الجو يميل تدريجيًا إلى البرودة، وفي بيت «أوتاما» يكتسي الصقيع ناصع البياض في الصباح فقط، متراكمًا فوق اللوح الخشبي المدفون تحت الأرضية عند مدخل المطبخ. أشفقت «أوتاما» على «أوميه» فاشتريت لها قفازات، إذ إن الحبل الطويل المستخدم لجلب الماء من البئر العميقة يكون بارداً، لكن «أوميه» التي ظنت أن ارتداء القفازات ثم خلعها في كل مرة سيعيقها عن أعمال المطبخ، احتفظت بها بعناية، وظلت تجلب الماء بيديها العاريتين. وحتى حين طلبت منها «أوتاما» غسل الملابس أو التنظيف بالخرقة، كانت تسخن الماء قبل استعماله، إلا أن يدي «أوميه» كادتا تتقرحان. تأثرت «أوتاما» بشدة، وقالت لها:

- لا يجوز ترك يديك مبتلتين بعد كل عمل مائي. إذا أخرجتهما من الماء، عليك مسحهما بسرعة وتركهما تجفان، وعندما تنتهين، لا تنسي غسل يديك بالصابون.

فقدمت لها صابونًا خاصًا، ومع ذلك استمرت تقرحات يدي «أوميه» في التفاقم، مما أثار في «أوتاما» مشاعر الشفقة. وكانت تستغرب كيف أنها كانت تقوم بنفس الأعمال ولم تصب يداها بتقرحات.

حتى «أوتاما» التي كانت تكره البقاء في الفراش بعد الاستيقاظ، صارت تلتف بالغطاء بلا وعي حين تحذرها «أوميه»:

- الحوض هذا الصباح لا يزال متجمدًا بالثلج، خذي قسطًا من الراحة.

يحذر مربو الشباب من تفاقم الخيالات، قائلين: «إذا دخلت إلى الفراش، فعليك النوم سريعًا، وإذا استيقظت، فعليك مغادرة الفراش فورًا، لأن الجسد المفعم بالحيوية إذا بقي في الفراش الدافئ، تنبت فيه الأفكار وتتفتح التخيلات كأزهار الأعشاب السامة في النار». في تلك اللحظات، تتحرر تخيلات «أوتاما» تمامًا، فتتوهّج عيناها بإشعاع ضوئي، ويتدفق اللون الأحمر الوردي من جفنيها إلى خديها، كأنها مخمورة.

وذات يوم، بعد ليلة صافية تتلألأ فيها النجوم، ونزول الصقيع مع الفجر، تكاسلت «أوتاما» طويلاً في الفراش، كما اعتادت مؤخرًا، ثم نهضت أخيرًا بعدما تسللت أشعة الصباح من النافذة الأمامية، التي رفعت عنها «أوميه» السلك الحامي من المطر منذ وقت بعيد. ارتدت حزام

«الكيمونو» الرقيق فوق معطفها النصفي، كأم تحمل طفلها على ظهرها، وخرجت إلى الحديقة ممسكة بخلة الأسنان. ثم سمعت صوت فتح البوابة الحديدية، وصوت «أوميه» ترحب بها قائلة:

- تفضلي بالدخول.

تتابعت خطوات داخل المنزل.

كان «سويزو» الذي قال لها:

- أهلًا، لقد تأخرت في النوم.

وجلس أمام مجمرة الحطب.

فردّت عليه:

- نعم، أعتذر، ولكن أليس حضورك مبكرًا على غير المعتاد؟

قالت «أوتاما» ذلك بعدما أخرجت الخلة التي كانت تُمسكها بين أسنانها على عجل، وبصقت اللعاب الذي كان في فمها في الدلو. بدا وجهها المبتسم، الذي امتدّت ابتسامته قليلاً، في عين «سويزو» أجمل مما كان في أي وقت مضى. فمنذ انتقالها للسكن في «موئنزاكا»، كانت «أوتاما» تتفتّح جمالًا يومًا بعد يوم. في البداية، كان «سويزو» يُعجب بظرافتها الطفولية، لكنه ما لبث أن تحول إعجابه إلى سحرٍ خاص. ومع هذا التغير الذي

لاحظه عليها، ظنَّ أنها بدأت تفهم الحب، وشعر بالرضا عن نفسه لأنه هو الذي أوصلها إلى هذه الحالة. ولكن عين «سويزو» الحادة التي تخترق الأمور وتكشف خباياها، كانت، بسخرية القدر، تخطئ في قراءة الحالة النفسية لامرأة تعشق.

كانت «أوتاما» في البداية تخدم سيدها بعناية، لكن التغير الذي طرأ عليها جعل قلبها ينحو إلى نوع من الهدوء البارد الذي يتشبّه بقلب كثير من نساء المجتمع بعد تجارب مع الرجال، إذ يمررن بمعاناة العذاب، ويُعدن التفكير في ماضيهن حتى يصلن إلى اقتناع داخلي يمكن تسميته «التهاون». كان «سويزو» يشعر بإثارة ممتعة وهو يلعب بتلك المشاعر. ومع ذلك، في الوقت الذي تتهاون فيه «أوتاما»، تميل تدريجيًا إلى قليل من الخلاعة، وهذا ما يوقظ في «سويزو» حرارة رغبة تجذبه إليها بشدة. لكنه لم يفهم تلك التغيرات أبدًا، ومن هنا نشأ إحساسه بالانجذاب.

قالت «أوتاما» وهي تنحني لجذب الطست المعدني نحوها:

.سيدي، هل تسمح بأن تُولي وجهك إلى الناحية الأخرى؟

رد «سويزو» وهو يشعل النار في الغليون:

.لماذا؟

قالت:

. لأنني أريد أن أغسل وجهي.

قال:

. وما الضرر؟ هيا اغسليه بسرعة.

. لا أستطيع غسله وأنت تنظر إلي.

. أمر صعب، هاه؟ هل يرضيك هذا؟

فأدار «سويزو» ظهره نحو الحديقة، ينفث دخان التبغ، وهو يفكر في سره:

«يا لها من امرأة ملائكية».

غسلت «أوتاما» وجهها بسرعة دون أن تخلع ملابسها، فقط وسعت فتحة الياقة، وكانت متهاونة عن المعتاد، إذ لم تكن هناك عيوب تخفيها بالمكياج، فلم تعد ترى مشكلة في أن يشاهدها أحد.

في البداية، كان «سويزو» موليًا ظهره، لكنه بعد لحظة أدار وجهه نحو «أوتاما» التي كانت تغسل وجهها دون أن تدري. وعندما انتهت وسحبت مرآة الخزانة، رأت في انعكاسها وجه «سويزو» الممسك بورقة التبغ بين شفتيه. فقالت:

. آه، يا لك من شخص بغيض!

وظلت تمسح شعرها بيدين متلألئتين تحت الياقة التي وسعت فتحتها، كاشفة عن بشرتها البيضاء في مثلث ممتد من العنق باتجاه الظهر. وبما أنها كانت ترفع يديها عاليًا، ظهر جزء من ذراعها إلى ما فوق المرفق، فبان زندها الممتلئ، وهو مشهد لا يمل «سويزو» من التحديق فيه.

وبينما ظل صامتًا ينتظر، ظن أنها ربما تسرع في عملها أو تفعل ذلك قسرًا، فبدأ يتكلم بنبرة متأنية، بطيئة، متعمدة:

. مهلاً، لا داعي للعجلة، فأنا لم آتِ هذا الصباح المبكر عبثًا. في الحقيقة، كما سألتني وقلت، سأذهب وأعود تقريبًا في هذه الليلة، إذ اضطررت للذهاب إلى «تشيبا» في أمر مهم. إذا سارت الأمور كما ينبغي، سأتمكن من العودة غدًا، وإن حدث شيء، قد أعود بعد غد.

نظرت «أوتاما» وهي تمسح المشط نحو الخلف وقالت:

.حقًا؟

بدت على ملامحها لمحة من القلق.

قال «سويزو» بنبرة مازحة:

.عليك أن تنتظري بهدوء وسكينة.

ثم أغلق علبة التبغ الملفوف، ونهض متجهًا نحو باب البيت.

قالت «أوتاما» وهي ترمي المشط في علبته:

. هل تغادر قبل أن أقدم لك الشاي؟

لكن حين وقفت لتودعه، كان «سويزو» قد فتح الباب الحديدي بالفعل.

***

خرجت «أوميه» من المطبخ حاملة صينية الإفطار، فوضعتها على الأرض، ثم وضعت يديها على الأرض علامة اعتذار، وقالت:

. أعتذر بشدة.

ابتسمت لها «أوتاما» جالسة بجوار مجمرة الحطب، تسقط الرماد المتراكم على النار باستخدام لاقط الفحم، وقالت:

. ما الذي تعتذرين عنه؟

ردت «أوميه»:

. لقد تأخرت، رغمًا عني، في إعداد الشاي للسيد.

أجابت «أوتاما»:

. آه، هل تقصدين هذا؟ لم يكن في بال السيد شيء حين أتى إلى هنا، قلت ذلك لمجرد التحية فقط.

ثم أمسكت بعصا الأكل وأكملت تناول إفطارها.

نظرت «أوميه» إلى وجه سيدتها وهي تتناول الإفطار هذا الصباح، ومع أن مزاجها نادرًا ما يختل، إلا أنها وجدتها في سعادة خاصة. ومنذ أن قالت «ما الذي تعتذرين عنه؟» ضاحكةً، لم يفارق الابتسامة المحمرة خديها وجهها.

لم يغمر عقل «أوميه» أي تساؤل عميق عن سبب تلك السعادة، بل اكتفت بأن عدوى المزاج الجيد أصابتها هي أيضًا، فأصبحت سعيدة.

ظلت «أوتاما» تطيل النظر في وجه «أوميه»، وقالت مبتسمةً، مما زاد من بهجتها:

.ألا ترغبين في زيارة أهلك؟

فتحت «أوميه» عينيها على اتساعهما، محملة بالشك والريبة. ففي ذلك الزمن، بعد مرور أكثر من عشر سنوات على عصر «ميجي»، كانت البيوت في مدينة «إيدو» تحكمها التقاليد والعادات القديمة الصارمة، وكان من المفترض أن الخادمة التي تنتقل من مدينة إلى أخرى لا تستطيع زيارة أهلها إلا لفترة قصيرة لا تتجاوز يومين أو ثلاثة أيام خلال عطلة رأس السنة.

تابعت «أوتاما»:

. أعتقد أن السيد لن يأتي الليلة، فإذا أردتِ الذهاب إلى بيت أهلك والمبيت هناك ثم العودة غدًا، فيمكنك ذلك.

قالت «أوميه» مترددة:

. آ... أتعنين ذلك حقًا، يا سيدتي؟

لم يكن في سؤالها شك في كلام سيدتها، بل كان تعبيرًا عن شعور عميق بعظمة تلك اللفتة الجميلة.

ردت «أوتاما»:

. ولمَ أكذب عليك؟ أنا لا أفعل هذا الذنب العظيم لمجرد السخرية منك. لا تهتمي بترتيب أواني الطعام، يمكنك الذهاب فورًا. استمتعي بيومك كاملاً، ثم عودي بعد المبيت هناك، لكن مقابل ذلك، عليك أن تعودي مبكرًا غدًا.

قالت «أوميه» وقد غمر وجهها لون الخجل والفرح:

. نعم، سأفعل.

ثم انهمرت الصور في رأسها الصغير كأنها شريط خيال الظل، سريعة متلاحقة؛ صورة عربات أبيها، ذلك العربجي، مصطفةً على الأرض الطينية أمام بوابة البيت، وصورة الوسادة المربعة التي توضع في المساحة الضيقة

بين الخزانة ومجمرة الحطب، وصورة أبيها جالسًا فوقها حين لا يجد عملًا، وصورة أمها وحيدةً تجلس عليها أيضًا، خصلةٌ من شعرها تدلت على خدها، وعلى كتفها صدرة عمل البيت التي نادرًا ما تنزعها.

وحين رفعت «أوميه» صينية الطعام بعد الفراغ من الأكل، ورغم ما قيل لها من أن لا حاجة لترتيب الأواني بعد الأكل، أصرّت أن تغسل ما تستطيع منها، فسكبت الماء الساخن في الدلو الصغير، وشرعت تغسل الأكواب والصحون بصوت خافت يتخلل صمت البيت. عندها جاءت «أوتاما» تمسك بشيء مطويٍّ مغلف بورق، وقالت مبتسمة:

. ما هذا؟ كما توقعت، تغسلين الصحون! لا داعي لذلك، دعيها عليّ. أنتِ بالأمس صففتِ شعركِ، فاذهبي كما أنتِ. أسرعي وبدّلي ملابسك، وخذي هذا معكِ هدية، فلا يوجد شيء أنسب منه.

ثم ناولتها اللفافة. كان بداخلها أوراق نقدية زرقاء مقسومة نصفين، أشبه ببطاقات لعبة «الكاروتا» اليابانية.

***

وما إن أخرجت «أوتاما» «أوميه» من المنزل مسرعةً، حتى عادت إلى المطبخ مفعمةً بنشوة خفية، ترتدي صدرة وتشدّ طرف «الكيمونو» المنزلي إلى الأعلى، وراحت تغسل الأكواب والصحون التي كانت «أوميه»

على وشك غسلها، وكأنها تُقبل على عملٍ ممتع يبهجها. ذلك العمل الذي كان بوسع «أوتاما»، بما لها من خبرة سابقة ومهارة فذّة، أن تُنهيه بسرعةٍ ودقةٍ لا تدركهما «أوميه» مهما اجتهدت وخطّطت، غير أنّها اليوم كانت تؤديه بروح صبيّةٍ تعبث بألعابها، تمسك الصحن الواحد لدقائق طويلة، لا تكاد تتركه. وبعد حين، تألق وجهها بلون ورديٍ نابضٍ بالحياة، وعيناها سارحتان في فضاء بعيد.

ها هي ذي «أوتاما» في دوامة أفكارها المتفائلة، تروح وتجيء في ذهنها، كأنها طائر يحلّق بين أغصان الأمل. فالمرأة . وإن بدا عليها في أول الأمر التردد والحيرة، حتى ليعطف المرء عليها من فرط ما يرى من ضعفها . إذا ما عزمت أمرها ومضت، فإنها تندفع صوب غايتها كفرس أغشي على عينيها، لا ترى في دربها إلا ما تريد بلوغه، ولا تأبه بما يعترض الطريق من عوائق قد تجعل قلب أشد الرجال عزيمة يخالطه التوجس والحذر. وعندئذ، تفعل المرأة ما يحاذر الرجل نفسه من الإقدام عليه، وإذا بها . على غير المتوقع . تبلغ النجاح.

إن محاولة «أوتاما» التقرب من «أوكادا»، لو نظر إليها أحدهم من بعيد، لكان سيفقد صبره من شدة ما قد يراها متسرعةً في خطاها، غير أنها حين استأذنت «سويزو» صباحًا ليذهب إلى «تشيبا» ثم انطلق، شعرت كما لو أن مركبها الصغير قد انتفخ شراعه برياح مواتية، فاندفعت نحو

الساحل الذي اختارته غايةً لها. أسرعت تدفع «أوميه» خادمتها للعودة إلى بيت أهلها، فذهبت، وباتت هناك. أما «سويزو» الذي كان يمكن أن يقف في وجه رغبتها، فقد مضى إلى «تشيبا» ولن يعود إلا غدًا. بذلك وجدت نفسها طليقة الجسد والإرادة حتى صباح الغد، لا رقيب عليها ولا قيد، فتسللت إلى روحها متعة لا حد لها، وحلّقت في قلبها نشوة الحرية.

ثم أضاء في صدرها يقين لذيذ بأن ما جرى حتى الآن من ترتيب أمورها بلا عقبات، إنما هو بشارة بأن الطريق إلى هدفها الأخير سيكون معبّدًا بالنجاح. وأيقنت في نفسها أنه لا بد أن يمر «أوكادا» اليوم من أمام دارها؛ فهو في بعض الأيام يمر مرتين ذهابًا وإيابًا. وحتى لو فاتتها رؤيته في المرة الأولى، فمن المستحيل أن تفلت منها رؤيته في الثانية. كان لزامًا عليها أن تحدثه اليوم، ولو كلّفها ذلك ما كلّفها. وإن حدّثته، فلا يعقل أن يمتنع رجل مثله عن الوقوف للإصغاء.

قالت في نفسها: «صحيح أنني انزلقت إلى أن صرت مجرد محظية وضيعة، بل محظية لمرابٍ أيضًا، لكن حتى لو لم أصبح أجمل مما كنت، فأنا لم أزد قبحًا. وما جذبني إلى «أوكادا» أنني صرت أرى فيه قطرة سعادة وسط بحر الشقاء الذي أغرق فيه. ومن المحال أن ينظر إليّ «أوكادا» نظرة كراهية. لا، ليس ذلك بممكن. والدليل أنه لا يفتأ يحييني كلما التقت أعيننا. وما فعله عندما قتل الثعبان لأجلي لم يكن أمرًا هيّنًا. فلو كان في بيت آخر

لما التفت إليه، بل لمرّ عابرًا دون اكتراث. وفوق ذلك، لا يمكن لمن أفكر فيه بهذه الحرارة ألا يشعر بما في قلبي، حتى لو لم يعرف كل ما أكنّه من مشاعر، فلا بد أن يصله بعض ما أحسّ به. وما أدراه؟ قد يكون الفعل أيسر من التفكير».

وبينما كانت تسترسل في خواطرها، برد الماء في الإناء الصغير حتى غدت برودته قاسية، لكنها لم تشعر بشيء من ذلك، وقد استغرقها الحلم.

ثم رتبت «أوتاما» الأواني في أماكنها، وعادت إلى حيث مجمرة الحطب فجلست، يغشاها قلقٌ خفيّ وضيقٌ وتململ لا تدري له سببًا، فقامت تقلب الرماد الذي غربلته «أوميه» مرتين أو ثلاثًا في الصباح. ثم نهضت فجأة، كمن وقع في صدره عزم لا يقبل التأجيل، وبدأت تبدّل ثيابها. عزمت على الذهاب إلى تلك المرأة التي تصفّف الشعر في حي «دوبوتشو»، وهي امرأة فاضلة اعتادت أن تأتيها إلى الدار، وقد أعطتها «أوتاما» ذات يوم عنوان البيت وقالت لها: «إن مررتِ بجوارنا يومًا فتعالي». لكنها حتى ذلك الحين لم تذهب إليها قط.

الفصل الثاني والعشرون

في كتب قصص الأطفال الغربية حكاية تُدعى «مسمار واحد». لا أتذكّرها جيدًا، ولكنّها تدور حول ابنِ مزارعٍ تعرّض لمتاعب شتّى لمجرّد أنّه خرج بعربةٍ فقدت عجلاتُها مسمارًا واحدًا. وفي هذه القصة التي أحكيها الآن، لعبت وجبةُ سمك الإسقمري بصلصة «الميسو» دور ذلك المسمار تمامًا.

حين كنتُ أجعل من وجبات «بيت الطلبة» ووجبات الجامعة وسيلةً للبقاء على قيد الحياة ليس إلّا، كانت هناك وجبةٌ تبعث فيّ من النفور ما يُقشعرّ له الجلدُ مجرّد أن تقع عليها عيناي. ومهما بدا المطعم أنيقًا طيّب الهواء، ومهما وُضعت أمامي الصينيةُ النظيفة المزيّنة، ما إن تلتقط عيناي ذلك الطبق حتى يفوح في أنفي عبقٌ كريهٌ يشبه روائح مطبخ مسكن الطلبة التي يعجز اللسان عن وصفها. وحين تصاحب تلك الوجبة مقبّلاتٌ مسلوقة كأعشاب البحر السوداء المسماة «هيجيكي»، أو نخالة «ساجارا»، أصاب بحالةٍ من الهذيان والهلوسة البصرية من شدّة النفور. فإذا كان الطبق سمك الإسقمري بصوص «الميسو»، بلغت حالتي ذروتها.

وذات مساء، وُضعت أمامي في «مسكن كاميجو» صينية العشاء وفيها تلك الوجبة المشؤومة. وكعادتي أمسكتُ عصويَّ لتناول الطعام ما إن وُضعت الصينية أمامي، لكنّي توقفت قليلًا مترددًا، فتطلّعت إليَّ عاملةُ المطعم وقالت:

. هل تكره سمك الإسقمري؟

قلت لها:

. لا أكرهه بعينه. إن كان مشويًّا ألتهمه بلا تردّد، أمّا حين يُسلق مع صوص «الميسو» فلا أجد في نفسي شهوةً للطعام.

قالت العاملة وهي تستعد للقيام:

. صاحبة المنزل لا تدري ذلك. إن كان الأمر كذلك، هل أُحضر لك شيئًا آخر، كبيضة مثلًا؟

قلت لها:

. انتظري! في الحقيقة لستُ جائعًا الآن. سأخرج في نزهةٍ قصيرة وأعود لاحقًا. قولي لصاحبة المنزل ما ترينه مناسبًا، فلنحمِها من القلق الذي لا داعي له.

قالت لي وهي تُخفي شيئًا من الشفقة:

. لكنّني هكذا سأشعر بالأسى عليك بعض الشيء.

. لا تكوني سخيفة!

ولأنّني كنت قد نهضت وشرعت في ارتداء زي «الهاكاما»، خرجت العاملة حاملةً الصينية إلى الممر، ثم توجّهت إلى الغرفة الملاصقة لغرفتي وقالت:

. «أوكادا»! هل أنت هنا؟

ردّ «أوكادا» بصوتٍ واضح:

. نعم، ماذا هناك؟

قلت له:

. لا شيء، لكنّني أفكّر في الخروج قليلًا ثم المرور على مطعم «تويوكونيا» في طريقي. ألا تودّ مرافقتي؟

. فلنذهب معًا، لأنّ عندي ما أودّ أن أحدثك به.

تناولت القبّعة المعلّقة على مسمارٍ في الجدار، وضعتها على رأسي، ثم خرجنا سويًّا من «مسكن كاميجو». وأظنّ أنّ الساعة كانت قد تجاوزت الرابعة والنصف قليلًا. خرجنا من البوابة دون أن نتبادل حتى كلماتٍ بشأن وجهتنا، ثم انعطفنا يمينًا بعد الخروج.

وحين اقتربنا من النزول على منحدر «موئنزاكا»، لكزتُ «أوكادا» بمرفقي وقلت له:

. انظر! إنّها هناك.

سألني «أوكادا»:

. من تعني؟

ولأنّه كان يفهم مرادي جيّدًا، وجّه بصره نحو البيت الواقع على الجانب الأيسر، حيث البوابة المزيّنة بأسلاك الحديد.

وقفت «أوتاما» قبالة البيت، ضعيفة البنية لكنها مع ذلك تحتفظ بجمال لا تخطئه العين. وكعادة الشابات الجميلات الممتلئات بالصحة، كانت قد زينت وجهها بشيء من المساحيق، غير أنّ جمالها هذه المرة بدا لي مختلفًا على نحوٍ غامض؛ لا أعرف أين يكمن هذا الاختلاف، لكن وجهها كان يشعّ نورًا غير معتادٍ جعلني أشعر بنوعٍ من الانبهار.

كانت عينا «أوتاما» تفيضان نشوةً وهما تحدّقان في «أوكادا»، أما هو فبدت عليه مسحةٌ من الارتباك، إذ أمسك قبعته ليحييها ثم أسرع في خطاه دون وعي. وأنا، وقد كنت شاهدًا ثالثًا، نظرت إلى الخلف بين حينٍ وآخر بفضولٍ وقحٍ لا يخلو منه موقف كهذا، فرأيت «أوتاما» ما تزال واقفةً تنظر نحونا طويلًا وبأهميةٍ ظاهرة.

أخذ «أوكادا» يميل بنظره إلى أسفل، ثم شرع يهبط المنحدر بخطواتٍ متسارعة لم يُرد أن يبطئها، ولحقتُ به في صمت، بينما تتلاطم في صدري مشاعر متناقضة؛ وخلاصتها أنّني كنت أتمنى لو كنت في مكانه. لكن وعيي كان يرفض أن يقرّ بهذا التمني، وقلبي يصرخ بي محتجًّا: «ألهذا الحد أنت رخيص؟» أحاول طرد تلك الرغبة ولا أنجح، فأغلي في داخلي غضبًا من نفسي. لم تكن أمنيتي أن أخضع لإغواء امرأة، بل كان كل ما في الأمر أنني تصوّرت كم قد يكون جميلًا لو أحبّتني امرأةٌ فاتنة مثلها. لكن لو أنني كنت مكانه، كيف سيكون موقفي؟ كنت سأفضّل أن أحتفظ بحريتي كما هي، لا أهرب مثل «أوكادا»، بل أواجهها وأحادثها، دون أن أدنس نفسي بما يُعيب، ثم أحبّها حبًا طاهرًا كحب الأخ لأخته الصغرى، وأمدّ لها يد العون، أنقذها من وحل حياتها. وصلت بي الخيالات إلى هذا الحد الذي لا يعرف نهاية.

سرنا أنا و«أوكادا» صامتين حتى بلغنا تقاطع الطريق أسفل المنحدر. وحين كنا على وشك أن نعبر قرب نقطة الشرطة، استطعت أخيرًا أن أفتح فمي قائلاً:

.لحظة، ألَم يصل الأمر إلى حدٍّ خطير؟

.هاه؟ ماذا تقصد؟

. لا تقل إنه لا شيء. أنت نفسك كنت تفكر فيها طول الطريق. لقد التفتُّ مرارًا إلى الخلف، فوجدتها لا تزال تنظر إليك حتى آخر لحظة، وربما ما زالت حتى الآن واقفةً تنظر في اتجاهنا. إنه تمامًا كما جاء في كتاب «سادن» الشهير: «عيناه تستقبلانها في القدوم وتودعانها في الرحيل»، غير أنّ الأمر هنا معكوس، فالمرأة هي التي تفعل ذلك.

قال «أوكادا» بصوتٍ حاد:

. أرجوك، كفّ عن هذا الكلام. لقد فتحت لك قلبي في هذا الأمر بكل تفاصيله، فهلّا رحمتني من هذه المناوشات؟

وبينما كنا نتحدث، وصلنا إلى «حافة البركة»، فتوقفت أقدامنا معًا.

أشار «أوكادا» بيده نحو الشمال قائلاً:

. دعنا نذهب من هنا.

قلت له:

. لنفعل.

وانعطفنا يسارًا بمحاذاة البركة. وبعد خطواتٍ قليلة، لمّا مررنا قرب بيت ذي طابقين على يساري، قلت كمن يحدّث نفسه:

. هذا هو قصر البروفيسور «فوكوتشي»، وذاك بيت «سويزو».

فقال «أوكادا» متأملًا:

. بينهما تناقضٌ غريب، أليس كذلك؟ حتى البروفيسور «فوكوتشي» لا يُقال إنه مستقيمٌ تمامًا!

قلتُ شيئًا يُشبه الدحض لتلك المزاعم، دون أن أُفكر في أمرٍ بعينه:

«طبيعيٌّ أن يُوجَّه النقد إلى من يُصبح سياسيًّا، مهما صنع».

وربما في أعماقي كنتُ أبتغي أن أزيد المسافة بين السيد «فوكوتشي» و«سويزو» قدر ما أستطيع.

ومن عند حافة ألواح الأسلاك التي تُحيط بقصر «فوكوتشي» ناحية الشمال، كانت ثمة لافتةٌ وُضعت حديثًا على ثاني أو ثالث بيت صغير، كُتب عليها: «سمك نهري». قلتُ وأنا أُمعن النظر في اللافتة:

«يبدو لي أنهم يُقدِّمون للزبائن صغار الأسماك المأخوذة من بركة شينوبازو».

فقال «أوكادا»:

«وأنا أيضًا خطرت لي الفكرة نفسها، غير أنّه لا يُعقل أن يُقيم الدجّالون مطعمًا في هذا المكان».

وبينما نتبادل هذا الحديث، سرنا فوق الجسر الصغير الذي يؤدي إلى شمال البركة، وهناك لمحنا شخصًا يبدو من هيئته أنّه طالب، يقف على الضفة متسمّرًا يُحدّق في شيءٍ ما. وحين رآنا نقترب منه، بادرنا بالتحية قائلًا:

«أهلًا».

كان ذاك الطالب يُدعى «إيشيهارا»، مغرمًا برياضات الدفاع عن النفس مثل الجودو وغيرها، لا يقرأ كتابًا خارج حدود ما يُفرض عليه من مقررات دراسية. ولهذا لم تكن بيننا وبينه – لا أنا ولا «أوكادا» – صلةٌ وثيقة، وإن كُنّا في الوقت نفسه لا نُضمر له كراهية.

سألته:

«فيما كنت تُحدّق وأنت واقف هناك؟»

سكت «إيشيهارا» هنيهة، ثم أشار بيده نحو البركة.

تطلّعنا – أنا و«أوكادا» – في اتجاه يده الممدودة، وسط هواء المساء الذي كاد يكتسي بلونٍ رماديٍّ غائم. كان نبات الغاب يكسو المكان كله، ممتدًّا من الأخدود الصغير المطل على حي «نيزو»، حتى الحافة التي وقفنا عندها نحن الثلاثة. أما أوراق الغاب الذابلة، فكانت تزداد تناثرًا كلّما اقتربنا من قلب البركة؛ ثم تتوالى أوراقٌ قديمةٌ وجافة من اللوتس، أشبه بالإسفنج

المتيبّس، وتتكسر سيقانها وعيدانها في ارتفاعاتٍ متفاوتة، فتبدو شامخةً بزوايا حادةٍ تُضفي على المشهد ملامح من الكآبة الصامتة.

وكانت نحو عشر إوزاتٍ برّيةٍ تروح وتجيء بين فراغات تلك السيقان الغبراء، تطفو فوق سطح الماء الذي علاه سوادٌ كثيف يعكس ظلالًا مُعتمةً قاتمة. وبينها إوزةٌ وحيدة بقيت ساكنةً في مكانها لا تُحرّك ساكنًا.

قال «إيشيهارا»، وهو يُحدّق في وجه «أوكادا»:

«تُرى، هل يمكن أن تصل إليها الأحجار؟»

فأجاب «أوكادا»:

«وصولها إليها أمر مفروغٌ منه، لكن المسألة: هل ستُصيبها أم لا؟»

قال له «إيشيهارا» وقد بدا في صوته شيءٌ من التحدي:

«جرب إذًا وارمِ».

تردّد «أوكادا» قليلًا وقال:

. يبدو أنّها على وشك النوم... أليس في الأمر قسوة أن نرميها بالحجارة؟ أشفق عليها.

ضحك «إيشيهارا» وقال:

. إنّ الشفقة الزائدة على الحيوانات متعبة للنفس يا صديقي. إن لم تقذفها أنت فسأفعل أنا.

فرمى «أوكادا» حجرًا بتكاسل قائلًا:

. إذا كان لا بدّ من ذلك، فسأكتفي بإخافتها لتفرّ.

طار الحجر في الهواء مطلقًا صوتًا خافت الصدى، وظللت أتابع مساره بفضولٍ حتى سمعنا طرقعة، إذ أصاب الحجر رقبة إوزّة كانت تُطأطئ رأسها في الماء. وفي اللحظة نفسها اضطربت بقيّة الإوز، فرفرفت أجنحتها مذعورة وصاحت واندفعت تنزلق على سطح الماء، لكنّها لم تغادر البركة طيرانًا. أمّا تلك الإوزّة التي انكسرت رقبتها، فبقيت مكانها ساكنة بلا حراك.

صاح «إيشيهارا» بصوتٍ يكتم نشوةً خفيّة:

. لقد أصبتها!

ثم ظلّ يرمق سطح البركة مليًّا، وبعدها واصل قائلاً:

. سأستخرج تلك الإوزّة من الماء، وحينها سأحتاج مساعدتكما.

سأله «أوكادا» متعجبًا:

. ولماذا ستأخذها أصلًا؟

كدتُ أصغي إليهما دون أن أشعر.

فأجاب «إيشيهارا»:

. أولًا، ليس الوقت مناسبًا الآن. بعد نحو نصف ساعة سيخيّم الظلام، وحين يحلّ سأُريكما كيف أُخرجها بلا عناء. ما عليكما إلّا أن تساعداني في تلك اللحظة. وقتها سنتقابل هنا، وأرجو أن تنفّذا ما أطلبه. سنتعشّى جميعًا بتلك الإوزّة.

قال «أوكادا» ضاحكًا:

. فكرة ممتعة حقًّا!

ثم أضاف:

. لكن ماذا نفعل في انتظار تلك النصف ساعة؟

قال «إيشيهارا»:

. سأبقى هنا أراقب المكان. أمّا أنتما فاذهبا حيث تشاءان، ثم عودا لاحقًا. فوجودنا جميعًا هنا قد يثير الريبة.

فالتفتُّ إلى «أوكادا» وقلت:

. حسنًا، إن كان الأمر كذلك، فما رأيك أن نتمشّى معًا حول البركة؟

قال «أوكادا»:

. فكرة رائعة.

وبدأ يسير مباشرةً دون تردّد.

الفصل الثالث والعشرون

سرنا معًا أنا و«أوكادا»، نسلك الدرجات الصخرية المؤدية إلى معبد «توشو» الشنتوي، بعد أن عبرنا طرف حي «هاناسونوتشو». خيّم علينا صمتٌ ثقيل لبعض الوقت، إلى أن قطع «أوكادا» ذلك السكون بصوتٍ خافتٍ كمن يحدّث نفسه، قائلًا:

.يوجد بالقطع إوزّ بريٌّ تعيس.

وحالما نطقها، قفزت إلى ذهني، دون سببٍ منطقي، صورة تلك المرأة التي رأيناها عند منحدر «موئنزاكا». ثم التفت «أوكادا» إليّ وقال:

.لقد رميتُ الحجرَ فقط ناحية المكان الذي يوجد فيه الإوزّ.

أجبته وأنا ما أزال مشغول الفكر بتلك المرأة:

.حقًّا؟

ثم توقّفت عن السير لبرهة وقلت له:

.ولكني أريد أن أرى «إيشيهارا» وهو يذهب ليلتقطها.

هذه المرة اكتفى «أوكادا» بالردّ عليّ بكلمة واحدة:

.حقًّا!

ومضى يخطو، وقد بدا عليه أنّه مستغرقٌ في التفكير في أمرٍ ما. لعلّ الإوزّة البرّية وحدها كانت تملأ ذهنه.

ولما انتهينا من صعود درجات السلم الحجري، ودُرنا جنوبًا صوب المعبد، خيّم على قلبيْنا ظلٌّ قاتمٌ من كآبة موت الإوزّة، فتقطّعت كلماتنا وتباعدت بين الفينة والأخرى. وعندما بلغنا بوابة المعبد الخشبية، بدا أنّ «أوكادا» يحاول جاهدًا أن يغيّر مجرى الحديث، فقال:

.كان لديَّ ما أريد أن أحدثك عنه.

ثم أسْمعني ما لم يخطر ببالي قط.

كان الحديث قد جرى على هذا النحو: كان «أوكادا» يُوشك أن يأتي إلى غرفتي ليُفاتحني بما وقع، غير أنّني سبقتُه بدعوته إلى التنزّه في الخارج، فخرجنا معًا. وبعد خروجنا، بدا أنّه كان يُفكّر في أن يحدّثني عمّا عنده ونحن نتناول العشاء، إلا أنّ الأمر – على ما يبدو – بدا له صعبًا في تلك اللحظة، فآثر أن يُطلِعني على بعض جوانب الموضوع ونحن نسير.

لقد قرّر أن يُسافر إلى الغرب من غير أن ينتظر تخرّجه في الجامعة، وكان قد استصدر جواز السفر بالفعل من وزارة الخارجية، بل وقدّم طلبًا رسميًّا لترك الدراسة.

أمّا السبب في ذلك، فكان أنّ البروفيسور الألماني «ويي»، الذي جاء إلى اليابان ليتقصّى الأمراض الناشئة عن البيئات والعادات في الشرق، قد استكتبه للعمل معه لقاء راتبٍ شهري يبلغ مائتي مارك، فضلًا عن أربعة آلاف مارك نفقات السفر ذهابًا وإيابًا.

وكان «البروفيسور بيلتز» قد عرّف «أوكادا» إلى السيد «ويي»، بعدما طلب إليه أن يُرشّحه لطالبٍ يُجيد الألمانية ويحسن قراءة الرموز الصينية بيسر.

وهكذا زار «أوكادا» السيد «ويي» في منطقة «تسوكيجي»، وخضع هناك لاختبار. وقد طُلب منه أن يُترجم سطرين أو ثلاثة من كتاب «سومون»، ومثلها من كتاب «نانكيو»، فضلًا عن خمسة أو ستة أسطر من قاموس «شانجانلون» وكتاب «بيوجنكيلون».

غير أنّه – ويا للأسف – صادف في كتاب «نانكيو» كلمة «سانجياو»، فتردّد برهةً في ترجمتها، ثم ما لبث أن تجاوز الأمر بأن اكتفى بكتابة لفظها «تشاو».

وعلى أيّ حال، فقد اجتاز الاختبار، وتقرّر التعاقد معه في الحال.

وبما أنّ السيد «ويي» أستاذٌ في جامعة «لايبزيج»، وهي نفسها الجامعة التي ينتمي إليها «بيلتز» اليوم، فسيُرافقه «أوكادا» إلى هناك، حيث سيخوض امتحان الطب تحت إشراف السيد «ويي» ذاته. وقال أيضًا إنّ بإمكانه أن يُقدّم ترجماته لكتب الطب الشرقية التي سيعدّها لصالح السيد «ويي» على صورة بحث تخرّج.

وقد أخبرني أنّه سيُغادر «مسكن كاميجو» غدًا، لينتقل إلى الإقامة مع السيد «ويي» في «تسوكيجي»، حيث سيُعينه في ترتيب الكتب التي اقتناها وجمعها من الصين واليابان، ثم سيرافقه في رحلةٍ استطلاعيةٍ إلى إقليم «كيوشو»، وبعدها سيُبحران مباشرةً من «كيوشو» على متن سفينةٍ تابعة لشركة الشحن البحري الفرنسية.

كنتُ أُصغي إلى تلك الحكاية ونحن نسير على مهل، حتى كنتُ بين الحين والآخر أقف لأقول: «عجيب!» أو «حقًّا، إنّك جريء في قرارك هذا!».

لكنّني لمّا استمعتُ إلى قصته حتّى تمامها، ثم نظرتُ في ساعتي، لم أجد أنّ أكثر من عشر دقائق قد مضت منذ أن افترقنا عن «إيشيهارا». بل إنّنا –

فوق ذلك – كُنّا قد تجاوزنا ثلثي المسافة المحيطة بالبركة، وبدأنا نبتعد شيئًا فشيئًا عن طرف البركة وراء حي «ناكاتشو».

قلت:

. لو واصلنا السير بهذا الشكل، فسوف نصل قبل الموعد المطلوب.

فقال «أوكادا» مقترحًا:

. ما رأيك أن نذهب إلى مطعم «هاسوتاما» ونتناول طبقًا من معكرونة «السوبا»؟

وافقتُه على الفور، وعدنا معًا إلى المطعم. كان «هاسوتاما» في ذلك الوقت أشهر مطاعم «السوبا» في المنطقة الممتدة بين «شيمويا» و«هونجو».

وبينما كان «أوكادا» يتناول «السوبا»، قال:

. يحزنني أنني لم أتخرج بعد كل ما بذلته من جهد... لكن بما أنّه من المؤكد أنني لن أُختار مبتعثًا على نفقة الدولة، فإذا ضاعت هذه الفرصة فلن أرى أوروبا أبدًا.

قلتُ له:

. هذا صحيح تمامًا. لا تدع هذه الفرصة تفلت من يدك. وما قيمة التخرج؟ حتى لو صرت هناك طبيبًا، فلن يكون فرق كبير، وحتى لو لم تمارس الطب أصلًا، فلن تندم.

قال:

. أعتقد ذلك أيضًا. لكنني أسعى فقط للحصول على رخصة الطب، وسأفعل ذلك بعض الوقت امتثالًا لعادات المجتمع.

سألته:

. وماذا عن استعدادات السفر؟ يبدو أن الرحيل سيكون على عجل شديد.

قال مبتسمًا:

. ماذا؟ سأرحل على هذه الحال كما أنا. وكما يقول السيد «ويي»: حتى لو حيكت ملابس غربية في اليابان، فلن تصلح للارتداء هناك.

قلتُ:

. تُرى هل هذا صحيح؟ لقد قرأت في مجلة «كاجتسو» أن الكاتب «ريوهوكو ناروشيما» خطرت له فكرة السفر وهو في «يوكوهاما»، فركب السفينة في الحال وسافر.

قال «أوكادا»:

. نعم، لقد فعل ذلك فعلًا، فأنا أيضًا قرأت تلك المجلة. وسافر «ريوهوكو» كما يبدو من دون أن يُبلغ عائلته برسالة واحدة، أمّا أنا فقد شرحت الأمر لأسرتي بالتفصيل.

قلتُ معجبًا:

. حقًا؟ يا لك من محظوظ! لأنك ستسافر بصحبة السيد «ويي»، فلن تقع في حيرة أو اضطراب مفاجئ. تُرى كيف يكون طعم السفر؟ لا أستطيع حتى تخيّله.

قال «أوكادا»:

. وأنا أيضًا لا أعرف عنه شيئًا، لكنني التقيت أمس البروفيسور «شوكيه شيباتا»، ولأنه كان يهتم بي كثيرًا، فعندما حدثته عن السفر، أهداني دليل السفر إلى الغرب الذي ألّفه بنفسه.

قلتُ بدهشة:

. هاه! وهل يوجد مثل هذا الكتاب أصلًا؟

قال:

. أجل، لكنه غير مطروح للبيع، وكما سمعت يتم توزيعه فقط على الوافدين الجدد.

وأثناء حديثنا، نظرتُ إلى الساعة، فوجدت أنه لم يبقَ من الموعد المتفق عليه بعد انقضاء النصف ساعة سوى خمس دقائق، فنهضتُ مسرعًا مع «أوكادا» وغادرنا مطعم «هاسوتاما»، وتوجهنا إلى حيث ينتظرنا «إيشيهارا».

وصلنا في اللحظة التي غطّى فيها الظلام البركة، ولم يكن يظهر في الأفق سوى ألوان معبد «بنتن» الحمراء تلوح وسط ضباب غائم.

ولم نكد نصل حتى قال لنا «إيشيهارا» وهو يقودنا إلى حافة البركة:

. لقد وصلتما في الوقت المناسب تمامًا. لقد عادت الإوز الحيّة كلها إلى أعشاشها. سأبدأ الآن بما يجب عليّ فعله، أمّا أنتما فابقيا هنا لتنبّهاني وتوجّهاني بما يلزم. انظرا، هناك على بعد خمسة أمتار ونصف تقريبًا أمامنا ساق منحنية لنبات اللوتس إلى اليمين، وعلى امتداد الخط نفسه ساق أخرى أقلّ ارتفاعًا منحنية إلى اليسار. يجب عليّ أن أتقدّم على طول ذلك

الخط المستقيم، فإذا بدا أنّني على وشك الانحراف عنه، أنتما تُصحّحان لي الطريق بأن تقولان لي: يمينًا أو يسارًا.

ردَّ «أوكادا» قائلًا:

. فهمت جيّدًا... تقصد منطق الاختلاف الظاهري. ولكن، أليس هناك خوف من أن تكون البركة عميقة للغاية؟

فقال له «إيشيهارا» مطمئنًا:

. ماذا؟ لا أظنّها أعمق من طولي.

وما إن أنهى عبارته حتى خلع ملابسه على عجل وبقي عاريًا تمامًا. وعندما نظرنا إلى الموضع الذي خطا فيه «إيشيهارا»، بدا أنّ الوحل لا يتجاوز ركبتيه إلّا قليلًا. فصار يرفع قدمه ويطأ بها الأرض كمثل طائر البلشون، يتقدّم خطوةً إثر خطوة. وحين ظننّا أنّ البركة بدأت تغور قليلًا، ما لبثت أن عادت ضحلة من جديد. وفي لمح البصر كان «إيشيهارا» قد تخطّى سيقان اللوتس.

وبعد قليل قال «أوكادا» بهدوء:

. يمين.

فاتّجه «إيشيهارا» يمينًا وواصل السير، حتى إذا شطّ قليلًا عن الطريق قال له «أوكادا» من جديد:

.يسار.

فتوقّف «إيشيهارا» لحظةً وأمال جسده، ثم سرعان ما عاد إلى استقامته. وفي اللحظة التي تجاوز فيها ساق نبات اللوتس البعيد، أبصرنا جميعًا ذلك الصيد الثمين وهو يتدلّى من يده اليمنى.

عاد «إيشيهارا» إلى ضفّة البركة، ولم يعلق من الوحل في جسده سوى نصف فخذه. وكان الصيد إوزّةً بريّةً ضخمة، أكبر حجمًا ممّا تخيّلنا. غسل «إيشيهارا» ساقيه بسرعة، ثم ارتدى ملابسه من جديد. ولم يكن في تلك اللحظة ثمّة مارةٌ يُذكرون؛ فلم يمرّ بنا أحدٌ منذ دخوله البركة وحتى خروجه منها.

وعندما سألتُه:

.كيف سنحملها؟

أجابني «إيشيهارا» وهو يربط سروال «الهاكاما»:

. معطف «أوكادا» هو الأوسع بيننا؛ فعليه أن يخفيها بداخله ويحملها لنا. أمّا الطهي، فسأتدبّره عند صاحبة المسكن الذي أقيم فيه.

كان «إيشيهارا» يستأجر غرفةً في بيتٍ متواضع غير مخصّص أصلاً للتأجير. وكانت زوجة صاحب ذلك البيت ذائعة الصيت بسوء طبعها، غير أنّنا إنْ اقتسمنا معها الصيد أمكننا إسكاتها على نحوٍ ما. وكان ذلك المسكن يقع في عمق زقاقٍ ملتفٍّ خلف قصر «إيواساكي»، بعد اجتياز حي «يوشيما». وراح «إيشيهارا» يشرح لنا الطريق باختصار: من هنا يمكن الوصول إلى مسكنه عبر طريقين؛ طريقٍ ينزل جنوبًا حتى منحدر «كيريتوشي»، وطريقٍ يتجه شمالًا حتى «موئنزاكا». وهما يكوّنان معًا دائرةً مركزها قصر «إيواساكي»، وفارق المسافة بينهما ضئيل لا يكاد يُذكر.

في حالتنا هذه لم يكن فرق المسافة هو ما يشغلنا، بل نقطة الشرطة في كلٍّ من الطريقين. وبعد مقارنة المخاطر، وجدنا أنّ من الأسلم أن نتجنّب طريق «كيريتوشي» الذي يزدحم بالمارة، ونسلك طريق «موئنزاكا» الموغل في الوحشة. ورسمنا خطّةً بأن يحمل «أوكادا» الإوزّة مخفيّةً تحت معطفه، بينما نسير أنا و«إيشيهارا» إلى جانبيه لنواري جسده عن العيون.

حمل «أوكادا» الإوزّة وهو يبتسم ابتسامةً مريرةً تفضح قلقه. ومهما حاول أن يُخفيها، كانت تتسلّل من طرف معطفه ريشة أو ريشَتان. كما بدا ذيل المعطف ممتدًّا على نحوٍ غير طبيعي، ليجعل «أوكادا» يبدو كأنه مخروطٌ يمشي على قدمين. فكان لزامًا عليّ وعلى «إيشيهارا» أن نجتهد لإخفاء هذا المنظر عن أعين المارة.

الفصل الرابع والعشرون

قال «إيشيهارا»:

. نسير على هذا النحو.

ثم شرعنا نسير ثلاثتنا، وقد جعلنا «أوكادا» في الوسط. وما كان يجول في خاطرنا جميعًا، هو تلك النقطة الشرطية القائمة عند تقاطع الطريق أسفل منحدر «موئنزاكا».

راح «إيشيهارا» يتحدّث بحماس، يفيض علينا بما أسماه «معارف ومعلومات» تُعيننا إذا ما اجتزنا هذا الطريق. وممّا التقطته أذناي من حديثه، أنّه قال:

. يجب ألا يتحرّك القلب. فإذا اضطرب، دلّ ذلك على أنّ فيه ثغرة، وإذا انفتحت الثغرة، استُبيحت.

وضرب لنا مثلًا قائلاً: «النمر لا يأكل السكران». ولعلي ظننت أنّه يردّد في ذلك ما تلقّاه من مدرّبه في رياضة الجودو دون زيادة ولا نقصان.

عندها قال «أوكادا» ساخرًا:

. إذا أخذنا نفكّر على هذا النحو، فإنّ الشرطي يصير هو النمر، ونحن الثلاثة لا نكون إلا أولئك السكارى!

فصاح فيه «إيشيهارا» بالألمانية قائلاً:

. صه!

وذلك لأنّنا كنّا قد شارفنا الركن الذي ننعطف عنده صوب منحدر «موئنزاكا».

ولمّا اجتزنا الركن، بدا لنا – في تلك اللحظة – في الحارة الموازية للبركة والممتدة خلف البيوت المتراصّة من حيَّي «ماتشيا» و«كاياتشو»، عربة جرّ للأمتعة وأشياء أُخر. ومن هناك رأينا الشرطي واقفًا في قلب التقاطع.

وكان «إيشيهارا» الذي يسير متشبّثًا بذراع «أوكادا» عن يساره، قد وجّه إليه الكلام فجأة قائلاً:

. هل تعرف تلك المعادلة التي نُحسب بها حجم المخروط؟ ماذا؟ لا تعرفها؟ إنّها في غاية البساطة. إنّها ثلث حاصل ضرب مساحة القاعدة في الارتفاع. فإذا كانت قاعدة المخروط دائرة، نحسب الحجم هكذا: ح =

frac{1}{3}31\13 × ع × ط × نق^{2}.

ولو كنت تحفظ أنّ ط = 3.1416 لسهُل عليك الحساب. أمّا أنا، فأحفظ قيمة ط إلى ما بعد العلامة العشرية بثمانية أرقام: 3.14159265، وإن كان ما يأتي بعد تلك الأرقام لا أهمية له في الحقيقة.

وفيما كان يُلقي هذا الشرح الجافّ، كنّا نحن الثلاثة قد مررنا بالفعل بتقاطع الطريق. وكان الشرطي واقفًا أمام نقطة الشرطة إلى يسار الطريق الذي سلكناه، يرقب عربات «الريكشا» التي يجرّها الرجال نحو حي «نيزو»، ثمّ لم يزد أن رمانا بنظرة خاطفة باردة لا تعني شيئًا، ومضى في شأنه.

فقلتُ لـ«إيشيهارا» متعجبًا:

. ما الذي دعاك إلى أن تشرع في حساب حجم المخروط هكذا؟ ماذا حدث؟

في تلك اللحظة بالذات، إذ بعيني تقعان على جانب الطريق المنحدر، فتراءت لي امرأة تحدق نحونا، فانتفض قلبي بتأثر غريب لم أعهده من قبل. وأثناء عودتنا عبر الدرب الذي يمتد بمحاذاة الحافة الشمالية للبركة، كان شغلي الشاغل التفكير في تلك المرأة أكثر مما شغلني منظر الشرطي القائم عند نقطة الحراسة. لا أدري ما السبب، غير أنني أحسست في قرارة نفسي أن تلك المرأة إنما تنتظر «أوكادا». وفي النهاية بدا لي أن حدسي لم يخذلني،

فقد تحركت خطوات يسيرة ناحيتنا، كأنها تقدمت مسافة بيتين أو ثلاثة من حيث كانت.

رمقت وجهها خفية وأنا أحرص ألّا أثير انتباه «إيشيهارا»، ثم عدت بنظري إلى وجه «أوكادا» أرقبهما معًا في صمت. وإذا بوجه «أوكادا» الذي اعتدت أن أراه مصبوغًا بحمرة خفيفة جدًا، قد ازداد حمرةً بشكل جليّ، ثم تظاهر وكأنما يعدّل من وضع قبعته، فرفع يده إلى طرفها الأمامي. أما المرأة فبدا وجهها جامدًا كصخرة صلدة، غير أنّ عينيها الواسعتين الجميلتين كانتا تنضحان بحرمان عميق لا تُحدّ أغواره.

عندها كان رد «إيشيهارا» على سؤالي لا يتجاوز مجرد صدى كلمات بلغ أذنيَّ، دون أن يلامس عقلي بمعناه. ولعل الرجل كان يدافع عن نفسه موضحًا أنّه التفت إليها لأن معطف «أوكادا» كان منتفخًا أسفلًا على هيئة مخروط، ولذلك جاء ذكر مسألة حساب حجم المخروط.

ويبدو أنّ «إيشيهارا» قد لمح المرأة، لكنه لم ير فيها أكثر من أنها امرأة حسناء وحسب. ثم استأنف حديثه دون انقطاع قائلاً:

.لقد شرحت لكما قبل قليل عن السر الأبدي، ولكن بما أنكما تفتقران إلى الخبرة التدريبية، وكان من المحتمل ألّا تنجحا في تنفيذه تحت وطأة الموقف الحرج، فقد عمدتُ إلى حيلة تُشغل عقليكما وتصرفهما للتفكير في

أمر آخر. وكان من الممكن أن يكون السؤال عن أي مسألة، غير أنّ ذكر المخروط تزامن مع حديثنا فوقع عليه الاختيار. وعلى كل حال، ألا تريان أن حيلتي كانت موفقة؟ فلولا تلك المعادلة لحساب حجم المخروط، لما عبرتما أمام الشرطي محتفظين بهدوئكما دون تكلّف.

واصلنا المسير نحن الثلاثة حتى بلغنا جوار قصر «إيواساكي»، وهممنا بالدوران حوله ناحية الشرق. وكان الطريق الذي سندخله بعد قليل حارة ضيقة لا تتسع إلا لشخص واحد في كل اتجاه، فلا تمرّ فيه عربتا «ريكشا» معًا، وبذلك تلاشى خطر أن نتعرض للتوقيف. هنا انفصل «إيشيهارا» قليلًا عن كتف «أوكادا» وأخذ يسير أمامنا كدليلنا في الطريق. التفتُّ وراء ظهري أبحث عن تلك المرأة، لكنها كانت قد اختفت كأنها لم تكن.

***

وأقمنا أنا و«أوكادا» تلك الليلة في بيت «إيشيهارا» حتى ساعة متأخرة من الليل. كنا في الحقيقة مجرد جليسَين لـ«إيشيهارا»، الذي راح يحتسي «الساكي» ويأكل لحم الإوزة مَزَّةً معه. ولم يأتِ «أوكادا» بأي ذكر لسفره إلى أوروبا، فكظمتُ في نفسي رغبة جامحة في سؤاله عن أمور كثيرة، واكتفيت بأن أصغي بصمت للحديث الدائر بينه وبين «إيشيهارا» عن مغامراتهما في رياضة التجديف.

وحين عدتُ إلى «مسكن كاميجو»، لم أجد في نفسي القدرة على التحدّث مع «أوكادا»، وقد أثقلني التعب وأنهكني السكر، فافترقنا ودخلت إلى نومٍ عميق. وفي اليوم التالي، عندما عدتُ من الجامعة، كان «أوكادا» قد غادر بالفعل، ولم أجد له أثرًا.

وكما قد يُحدث مسمارٌ صغيرٌ حادثًا جسيمًا، فكذلك تلك الوجبة البسيطة من سمك الإسقمري المسلوق التي ظهرت ذات مساءٍ على صينية عشاء «مسكن كاميجو»، كانت كفيلةً بأن تفصل إلى الأبد بين «أوكادا» و«أوتاما»، فلا يلتقيان بعدها أبدًا. بل إنّ ما جرى لم يتوقف عند ذلك الحدّ، بل تجاوزه إلى ما هو أبعد، غير أنّ ما جرى بعده يخرج عن إطار هذه الرواية، رواية «الإوزّة البرّية».

وقد دوّنتُ هذه الحكاية، غير أنّي إذا أحصيتُ ما مضى منها على أصابع يدي، لوجدتُ أنّ خمسةً وثلاثين عامًا قد انقضت منذ وقوع أحداثها. نصف تلك الحكاية شهدته بعيني في أيام صداقتي الحميمة مع «أوكادا»، أمّا النصف الآخر فقد بلغني على لسان «أوتاما» نفسها، بعد أن ساقني القدر للتعرّف عليها دون تدبيرٍ منّي، بعدما رحل «أوكادا» عن حياتها. وكما تُوضع صورتان، يمنى ويسرى، تحت عدستي منظارٍ مجسّم، فتظهران في النهاية صورةً واحدةً نابضةً بالحياة، فقد نظرتُ أنا كذلك إلى ما رأيتُه قديمًا وما سمعته لاحقًا، فنسجتُ منهما معًا خيوط هذه الحكاية.

وربما يسألني القارئ:

.كيف التقيتَ «أوتاما»؟ وفي أيّ مناسبةٍ رويتْ لك ما روت؟

وقد يهمّ مثل هذا السؤال بعض القرّاء. لكنّ جوابي، وكما ذكرتُ من قبل، أنّ ذلك يقع خارج حدود هذه الرواية. على أنّي أودّ أن أبدّد عن القارئ أوهامًا لا طائل منها، إذ ليس من المنطق في شيءٍ أن يتخيّل المرء أنّني امتلكتُ من الصفات أو المقومات ما يجعلني يومًا حبيبًا لـ«أوتاما».